

حِلْيَةُ العَالِمِ المُعَلِّمِ وبُلْغَةُ الطَّالِبِ المُتَعَلِّمِ

من

حديث جبريل عليه السَّلام

بقلم

سليم بن عيد الهلالي

دار التوحيد

حلية العالم المعلم
وبلغة الطالب المتعلم

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

الناشر

دار التوحيد للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

الرياض - الرمز البريدي : (١١٤٣٣)

ص ٠ ب : (١٠٤٦٤) - هـ : (٤٢٥٩٩٩٠)

الأصالة للتنضيد والإخراج الفني / الأُردن - الزرقاء / ص.ب (٣٣٦٩)

حِلْيَةُ العالِمِ المُعَلِّمِ وبُلْغَةُ الطالِبِ المُتَعَلِّمِ

من

حديث جبريل عليه السلام

بقلم
سليم بن عيد الهلالي

دار التوحيد للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

٢١٩,٧ الهلالي ، سليم بن عيد
٥٧٦هـ حلية العالم المعلم وبلغة الطالب المتعلم : من حديث جبريل عليه السلام / سليم بن عيد الهلالي -.
ط١ - الرياض : دار التوحيد ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م .
٩٩ص ؛ ١٤سم .
ردمك ٤ -٤ -٩٠٢٥ -٩٩٦٠
١ - الإسلام والعلم . ٢ - الحديث - مباحث عامة .
أ - العنوان .

رقم الإيداع : ١٤١٦ /١٤
ردمك : ٤ -٤ -٩٠٢٥ -٩٩٦٠

فَاتِحَةُ القَوْلِ

إِنَّ الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ باللَّه من شرور أَنفسِنا ، ومن سيئات أَعمالنا ، من يهده اللَّه فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له .

وأَشهدُ أَن لا إِله إِلَّا اللَّه وحده لا شريك له .

وأَشهدُ أَنَّ محمَّداً عبده ورسوله .

أَمَّا بعد : فقد حَرَسَ اللَّهُ بَيْضَةَ الإِسلام بالمجاهدين ، وحفظ شريعة الإِيمان بالمُتَعلِّمينَ حيث قال تعالى في كتابه المبين : ﴿ وما كان للمؤمنين لينفروا كافَّةً فلولا نفر من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ ليتفقهوا في الدِّين ولينذروا قومهم إِذا رجعوا إِليهم لعلَّهم يحذرون ﴾ [التوبة:١٢٢] .

فقد جعلَ اللَّه سبحانه المؤمنين فرقتين ؛ أَوجب على إِحداهما الجهاد في سبيله ، وعلى الأُخرى التفقه في دينه حتى لا ينقطع جميعهم إِلى الجهادِ ؛ فتندرس الشريعةُ وَيذهبُ العلمُ ، ولا يتوفروا على طلب العلم فتغلب الكفارُ على المِلَّةِ ، ولذلك رفع اللَّهُ درجاتِ

الفرقتين[1].

قال العلاّمة ابن قيِّم الجوزية - رحمه اللّه - في « مفتاح دار السَّعادة » (١ / ٥٠ - ٥١) :

« وقد أَخبر اللّهُ سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أَربعة مواضع :

أَحدها : قوله : ﴿ يا أَيُّها الذين آمنوا إِذا قيل لكم تَفَسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإِذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمِ درجاتٍ والله بما تعملون خبير ﴾ [المجادلة : ١١] .

الثاني : قوله : ﴿ إِنَّما المؤمنون الذين إِذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبُهم وإِذا تُليَت عليهم آياته زادتهم إِيماناً وعلى ربِّهم يتوكلون . الذين يُقيمون الصَّلاةَ ومما رزقناهم ينفقون أُولئك هم المؤمنون حقَّاً لهم درجاتٌ عند ربِّهم ومغفِرَةٌ ورزقٌ كريم ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

والثالث : قوله تعالى : ﴿ ومن يأْته مؤمناً قد عمل الصالحات فأُولئك لهم الدرجاتُ العُلى ﴾ [طه : ٧٥] .

والرابع : قوله تعالى : ﴿ وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين

---

(١) من مقدمة « الفقيه والمتفقه » بتصرف وزيادة .

أَجراً عظيماً درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً ﴾ [النساء : ٩٥ - ٩٧] .

فهذه أَربعةُ مواضعٍ في ثلاثةٍ منها الرِّفعةُ بالدرجات لأَهل الإِيمان الذي هو العلمُ النافعُ والعملُ الصالحُ ، والرابع الرِّفعةُ بالجهاد ، فعادت كلُّها إِلى العلم والجهاد اللذين بهما قوامُ الدين » أ.هـ .

ومنه نرى أَن العلماءَ الرَّبَّانيين الذين تقومُ بهم الحُجَّة ، وترتفع بقولهم الشُّبهةُ في مجالس العلم وحقول تزكية النفس وميادين الدعوة إِلى اللَّه كالمجاهدين في سبيل اللَّه الذين ينكؤون العدوَّ ، ويقمعون أَطماع الكفار في رباطهم على الثُّغور وحراسةِ الحدودِ .

وقد ورد هذا الفَهْمُ عن جماعةٍ من السَّلف الأَول - رضي اللَّه عنهم - :

قال أَبو الدرداء : « من رأَى الغدوَّ والرواح إِلى العلم ليس بجهادٍ فقد نقص في عقله ورأْيه » .

وقال كعب الأَحبار : « طالبُ العلمِ كالغادي الرايح في سبيل اللَّه عز وجل » .

وقال سفيان بن عيينة الهلالي : « من طلب العلم فقد بايع اللَّه »[1] .

---

(١) هذه الآثار من « مفتاح دار السَّعادة » لابن قيِّم الجوزيَّة .

بل صَرَّح بعضهم - رحمهم اللَّه - كمالك ، والشافعي ، وأَحمد ونصَّ على ذلك أَبو حنيفة : أَنَّ أَفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم[1].

ويشهدُ لهذا القول قولُه عليه الصَّلاة والسَّلام : « فَضْلُ العِلْمِ خيرٌ من نَفْلِ العمل وخَيْرُ دينكم الوَرَعُ »[2].

قال ابن قيم الجوزية - رحمه اللَّه - في « مفتاح دار السَّعادة » (١ / ١٢٠) معلقاً على هذا الحديث :

« وهذا الكلامُ هو فصلُ الخطابِ في هذه المسأَلةِ ، فإِنَّه إِذا كان كلٌّ من العلم والعمل فرضاً فلابُدَّ منهما كالصوم والصلاة ، فإِذا كانا فَضْلين - وهما النَّفلان المتطوع بهما - ففضلُ العلمِ ونفلُه خيرٌ من فَضْلِ العبادة ونفلِها ، لأَن العلمَ يعمُّ نفعُه صاحبه والناس معه ، والعبادةُ يختصُّ نفعُها بصاحبها ، ولأَنَّ العالم تبقى فائدتهُ وعلمُه بعد موتِه والعبادة تنقطعُ عنه » .

ولما كان المجاهد لا ينكأُ عدواً إِلَّا بسلاحٍ وعُدَّةٍ فمن أَراد الخروج أَعدَّ له عدَّة ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أَرادوا الخُروج لأَعدُّوا

---

(١) وانظر « مدارج السالكين » (٢ / ٤٧٠) .

(٢) « صحيح الترغيب والترهيب » (٦٥) طبعة دار المعارف .

له عُدَّة ﴾ [التوبة : ٤٦] ، ولذلك أَمر المجاهدين بالإِعداد والاستعداد فقال : ﴿ **وأَعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّةٍ** ﴾ [الأَنفال : ٦٠] ، فكذلك العالمُ المُعلِّمُ والمتعلِّمُ لا يصنعُ أُمَّةً ، ولا يكشف غُمَّة ، ولا يزيلُ ظُلْمَةً إِلَّا بأَخلاقٍ وآدابٍ ، فينبغي أَن يتميَّزَ العالمُ المعلِّمُ ويتحلَّى الطالبُ المتعلِّم في عامَّة أُمورِه عن طرائق العوامِّ باستعماله آثار الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام ما أَمكنه ، وتوظيف السنَنِ على نفسه ، فإِن اللَّه تبارك وتعالى يقول : ﴿ **لقد كان لكم في رسول اللهِ أُسوةٌ حسنةٌ** ﴾ [الأَحزاب : ٢١] .

ولِلّه درُّ سفيان الثوري القائل : « إِذا استطعت أَلَّا تحكَّ رأسَك إِلَّا بأَثرٍ فافعل »[1].

وَصَدَقَ القائِلُ :

ومن لا يُرَبيه الرسولُ وَيَسْقِه لباناً له قد درَّ من ثدي قُدْسِه
فذاك لقيطٌ ماله نسبه الـولا ولا يتعدى طورَ أَبناء جِنْسِه

وفي هذا بيان أَنَّ السنَّة النَّبويَّة الصَّحيحة بمجموعها تضمنت أَخلاق العالم المُتَعَلِّم ، واحتوت آداب الطالب المُتَعَلِّم ، بل إِنّي قد رأَيتُ ذلك مخبوءاً في « **حديث جبريل عليه السلام الطويل في الإِسلام والإِيمان والإِحسان** » ؛ ففي كلماته من مناهج التَّعليم

(١) « الجامع لأَخلاق الرواي وآداب السَّامع » (١ / ١٤٢) .

دُرَرٌ ، وفي ظلاله من مسالك التَّعلُّم غُرَرٌ ؛ فرأَيت استنباطها ، وتوثيق رباطِها ؛ لتخرجَ سلاسلَ ذهبيَّةً تدعو إِلى الأَخلاق السَّامِقةِ الزَّكية ، وتذكر بالآداب السَّامِية المرْضِية ، لتعود أُمَّةُ الإِسلام خير البريَّة ، وسميتها : « **حِلْيَةُ العالِم المُعَلِّم وبُلْغَةُ الطالِبِ المُتَعَلِّم من حديث جبريل عليه السَّلام** » .

وأَرجو اللَّه أَن تؤْتي أُكُلَها ، ويسوقها لأَهلها ؛ الذين إِن وجدوا خيراً دعو بالخير والبركة لمُصَنِّفِها وناشِرِها ، وإِن رأَوا خللاً اصلحوا ونصحوا ، أَما المُتَرَبِّصون فإِن رأَوا هَفْوَةً صرخوا وصاحوا مثل أَزَبِّ العَقَبَةِ ، نسأَلُ اللَّه حُسْنَ العُقبى .

وعلى اللَّه قصد السبيل .

وكتبه حامِداً لربِّه على تمام نعمته
ومُصَلِّياً ومسلِّماً على رسول اللَّه ليسر سنتِه ووضوح مِحَجَّتِهِ
أَبو أُسامة سليم بن عيد الهلالي
السَّلفِيُّ الأَثريُّ عقيدةً ومنهجاً وفروعاً .
ضحى يوم الجُمُعة منتصف جمادى الأَولى
سنة ألف وأَربع مئة وأَربعة عشر من هجرة رسولنا
وقدوتنا محمد بن عبداللَّه صلى اللَّه عليه وسلم .
في عمان البلقاء عاصمة الأُردن .

حديثُ جبريلِ الطَّويلُ

نَصُّ الحديث :

عن عُمَرَ بن الخَطاب - رضي اللَّهُ عنه - قال :

« بينما نحن جلوسٌ عند رسول اللَّه ﷺ ذات يوم إِذ طَلَع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثِّيابِ ، شديدُ سواد الشَّعر ، لا يرى عليه أَثَرُ السَّفرِ ، ولا يعرفه منا أَحدٌ ، حتى جلس إِلي النَّبيِّ ﷺ ، فأَسند ركبتيه إِلى ركبتيه ، ووضع يَدَيه على فخذَيه .

وقال : يا محمد أَخبرني عن الإِسلام ؟

فقال رسولُ اللَّه ﷺ : « الإِسلامُ : أَن تشهد أَنْ لا إِله إِلَّا اللَّه وأَنَّ محمَّداً رسولُ اللَّه ، وتقيم الصَّلاةَ ، وتؤْتي الزَّكاةَ ، وتصوم رمضان ، وتحجَّ البيتَ إِن استطعت إِليه سبيلاً » .

قال : صدقت .

قال : فعجبنا له ؛ يسأَلُه ويصدِّقُه .

قال فأَخبرني عن الإِيمان ؟

قال : « أَن تؤمنَ باللّه ، وملائكته ، وكُتُبِهِ ، ورُسُلِهِ ، واليوم الآخرِ ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّه » .

قال : صدقت .

قال : فأَخبرني عن الإِحسان ؟

قال : « أَن تعبد اللّهِ كأَنَّك تراه ، فإِن لم تكن تراه فإِنَّه يراك » .

قال : صدقت .

قال : فأَخبرني عن السَّاعة ؟

قال : « ما المسؤولُ عنها بأَعلم من السائِلِ » .

قال : فأَخبرني عن أَماراتِها ؟

قال : « أَن تلد الأَمَةُ ربَّتها ، وأَن ترى الحفاةَ العراةَ العالةَ رعاءَ الشاءِ يتطاولون بالبُنيانِ » .

ثم انطلق ؛ فلبث مليَّاً ، ثم قال لي : « يا عمر أَتدري من السائل ؟ » .

قلتُ : اللّهُ ورسولُه أَعلم .

قال : « هذا جبريل أَتاكم يعلمكم دينكم » » .

توثيق الحَديث :

هذا الحديثُ من أَفراد مسلم دون البخاري ؛ فقد أَخرجه في « صحيحه » (٨) من طرق عن ابن عمر حدَّثني أَبي عمر .

ورُوي عن ابن عمر مرفوعاً كما في « مجمع الزوائد » (١ / ٤٠) .

قال الترمذي في « سننه » (٥ / ٨) : « والصحيح هو ابن عمر عن عمر عن النَّبيِّ ﷺ » .

وأَخرجه الشيخان : البخاري (١ / ١١٤ - فتح) ، ومسلم (٩) من حديث أَبي هُريرة - رضي اللَّه عنه - .

وأَخرج النَّسائي (٨ / ١٠١) حديث أَبي هُريرة مقروناً مع أَبي ذر - رضي اللَّه عنهما - .

قلت : وإِسنادُه صحيح .

وروي حديث عمر عن النَّبيِّ ﷺ عن جماعة من الصَّحابة - رضي اللَّه عنهم - : ابن عبَّاس ، وأَنس بن مالك ، وجرير بن عبداللَّه ، وأَبي عامر أَو أَبي مالك الأَشجعي .

قلتُ : وأَسانيدها لا تخلو من مقال ؛ لكنها يعتبر بها .

أَهمية الحديث :

قال ابنُ رجبٍ الحنبليّ - رحمه اللَّه - في « جامع العلوم والحكم » (ص : ٥٤ - المنتقى) :

« وهو حديثٌ عظيمُ الشَّأن ، يشتمِلُ على شَرْحِ الدِّين كُلِّه ، ولهذا قال النَّبيّ ﷺ في آخره : « هذا جبريل أتاكُم يعلمكم دينكم » ، بعد أَن شرح درجةَ الإسلام ، ودرجةَ الإيمانِ ، ودرجةَ الإِحسان ، فجعل ذلك كُلَّه ديناً [1]» .

(١) وأصل هذه الجمل من كلامٍ لشيخ الإسلام ابن تيميَّة - رحمه اللَّه - ذكره في « العبوديَّة » (ص : ٢٤ - ٢٥) .

وقد كان المتقدمون إذا تصرَّف أَحدُهم في العبارة بزيادةٍ أَو نقص أَو اختصار لم ير ضرورةً للإِشارة إِلى أَصلها .

وقد ابتلينا بنابتةٍ في هذا العصر قَصَّرَ في العلم باعهم ، وطال في أَذى أَهل العلم ذراعهم ، وظنوا أَنَّهم على شيءٍ وليسوا كذلك ، فراحوا يكيلون لربَّانيِّ هذه الأُمَّة ومن سلك سبيلهم في هذا الباب أَطنان التهم التي تدل على سخائم نفوسهم .

ولقد أَتى عليَّ حينٌ من الدَّهر تأَثرت بمنهج المتقدمين[*1] في ذلك ، ثم بدا لي أَنَّ الأَفضل والأَولى عدم العمل به في هذه الأَعصار التي اكتفت من العلم بالشَّمِّ دون المطعم ، وذلك من باب حدِّثوا الناس على قدر عقولهم ، واللَّه أَعلى وأَعلم .

والمسأَلةُ تحتاج إِلى بسط ستراه - إِن شاء اللَّه - في بعض مقالاتنا المنشورة في العدد التاسع من رسالتنا « **الأَصالة** » .

وقد كان لشيخنا العلاَّمةِ المحدِّثِ الفقيه أَبي عبدالرحمن الأَلباني - حفظه اللَّه - فضلٌ في إِيضاحِ ذلك وبيانه ؛ فجزاه اللَّه خيراً .

(*١) وقد يظن من زبَّبَ قبل أَن يحصرم ، ولم يصبر على جرد المطولات ومقارنة المقالات : أَن قولنا : أَن ذلك منهجٌ للمتقدمين فيه مبالغةٌ ، وقد اجتمع عندي من الأَمثلة الواضحة على هذه المسأَلة ما يزيد على أَلف مثال عن جِلَّةِ العلماء السابقين واللاحقين ، ووقفتُ على شهادات في ذلك لأَهل العلم المحققين .

وقال - رحمه اللَّه - (ص : ٧٣ - المنتقى) :

« فمن تأمَّلَ ما أَشرنا إِليه مما دلَّ عليه هذا الحديثُ العظيمُ على أَنَّ جميعَ العلومِ والمعارف ترجعُ إِلى هذا الحديث وتدخلُ تحته ، وأَنَّ جميع العلماءِ من فرق هذه الأُمَّة لا تخرج علومُهم التي يتكلَّمون فيها عن هذا الحديث وما دلَّ عليه مجملاً أَو مفصَّلاً :

فإِنَّ الفقهاء يتكلَّمون في العبادات التي هي من جُمْلة خِصالِ الإِسلام ، ويضيفون إِلى ذلك الكلام في أَحكامِ الأَموال والأَبضاعِ والدماء ، وكل ذلك من علم الإِسلام كما سبق التنبيه عليه ، وبقي كثير من علم الإِسلام من الآداب والأَخلاق وغير ذلك لا يتكلَّم عليه إِلَّا القليل منهم ، ولا يتكلَّمون على معنى الشَّهادَتين وهما أَصلُ الإِسلام كُلِّه .

والذين يتكلَّمون على أُصول الديانات يتكلَّمون على الشَّهادتين ، وعلى الإِيمان باللَّه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر والإِيمان بالقدر .

والذين يتكلَّمون على المعارف والمعاملات يتكلَّمون على مقام الإِحسان ، وعلى الأَعمال الباطنة التي تدخل في الإِيمان أَيضاً ، كالخَشْية ، والمحبَّة ، والتَّوكُّل ، والرِّضا ، والصَّبر ، ونحو ذلك .

فانحصرت العلوم الشرعيَّةُ التي يتكلَّم عليها فرقُ المسلمين في هذا الحديث ، ورجعت كلُّها إِليه ، ففي هذا الحديث وحده كفايةٌ ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ » ا.هـ .

قلتُ : ولذلك فهو معدودٌ من الأَحاديث التي عليها مدارُ الإِسلام وعُمْدَةُ الأَحكام .

وهذه الرسالةُ التي بين يديك مما يؤيد ما قيل في شأن هذا الحديث ، فَدونَك إِيَّاها .

رِياضُ الجَنَّةِ

في قول عُمَر بن الخطَّاب - رضي اللَّه عنه - : « **بينما نحنُ جلوسٌ** » دلالةٌ على أَهميَّةِ **مجالس العلم** .

أهميتها :

ولذلك ينبغي على أَهلِ العِلْمِ عَقْدُ مجالِس التَّعَلُّم ؛ لأَن ذلك أَعلى مراتب الرَّبانيين كما قال رب العالمين : ﴿ **ما كان لِبَشَرٍ أَن يؤتيه الله الكتاب والحُكْمَ والنُّبوَّة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون** ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

وبذلك أَخبر الصادق الأَمين ﷺ : « مَنْ نفَّس عن مؤمنٍ كُربةً من كُرَب الدنيا نفَّس اللَّهُ عنه كُربةً من كُرَب يوم القيامة ، ومن يسَّر على مُعْسرٍ يسَّر اللَّه عليه في الدُّنيا والآخرة ، ومن ستر مُسلماً سترهُ اللَّه في الدُّنيا والآخرة ، واللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أَخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمسُ فيه علماً سهَّلَ اللَّه به طريقاً إِلى الجنَّة ، **وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللَّه ، يتلونَ**

كتاب اللَّه ، ويتدارسونه بينهم ، إِلَّا نزلت عليهم السَّكينة ، وغشيتهُم الرَّحمة ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم اللَّه فيمن عنده ، ومن بطَّأَ[1] به عملهُ ، لم يسرع به نَسَبُهُ »[2].

مع ما فيه من جمال الدين ، والاقتداء بسُنَنِ السّلف الصَّالحين ، وفي السابقين جماعةٌ من العلماءِ العاملين كانوا يعقدون مجالس الحديث والفقه ؛كمالك بن أَنس ، وشعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، ومحمد بن إِسماعيل البخاري ، وأَحمد بن حنبل ، وغيرهم - رحمهم اللَّه - .

تعيينُ مجلس العلم :

وينبغي على العالم المُعلِّم أَن يعيين للمتعلِّمين يوم المجلس ؛ لئلَّا ينقطعوا عن أَشغالهم لإِتيانه ، ويعد بعضهم بعضاً به .

التَّخوُّل بالموعظة والعلم وعدم الإِملال :

على أَن يكون مجلس التعليم غِبّاً لئلا يملَّ الطلابُ ، والأَصل في ذلك ما ثبت عن عبداللَّه بن مسعود - رضي اللَّه عنه - .

عن أَبي وائل قال : كان عبداللَّه يُذَكِّرُ الناس في كلِّ يومِ خميسٍ .

---

(١) قَصَّر أَو كان عمله ناقصاً .

(٢) أَخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أَبي هُريرة - رضي اللَّه عنه - .

فقال له رجل : يا أَبا عبدالرحمن لوددت أَنك ذَكَّرتنا كلَّ يومٍ .

قال : « أَما إِنَّه يمنعني من ذلك أَنِّي أَكره أَن أُملَّكم[1]، وإِني أَتخولكم كما كان النَّبيّ ﷺ يتخولنا[2]بها مخافة السآمة علينا »[3] .

فإِن أَراد الإِكثار فثلاث مرَّات كل جمعة .

عن عكرمة عن ابن عبَّاس - رضي اللَّه عنهما - قال :

« **حَدِّث الناس كل جمعة مرَّة ، فإِن أَبيتَ فمرَّتين ، فإِنْ أَكثرتَ فثلاث مرَّات** ، ولا تمل الناس هذا القرآن ، ولا أَلفينَّك تأْتي القومَ وهم في حديثٍ من حديثهم فتقص عليهم فتقطع عليهم حديثهم فَتُملّهم ، ولكن أَنصت ، فإِذا أَمروك فَحَدِّثهم وهم يشتهونهُ ، فانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ؛ فإِني عهدتُ رسولَ اللَّه ﷺ وأَصحابه لا يفعلون إِلَّا الاجتناب »[4].

وقد عقد البيهقي في كتابه : « المدخل إِلى السنن الكبرى » (ص : ٣٥٧ - ٣٦١) باب « التَّخول في الموعظة والعلم مخافة

---

(١) أُضْجِركم .

(٢) يتعهدنا ليصلحنا ، والمراد كان يراعي الأَوقات في تذكيرنا .

(٣) أَخرجه البخاري (١ / ١٦٣ - فتح) ، ومسلم (٢٨٢١) (٨٣) .

(٤) أَخرجه البخاري (١١ / ١٣٨ - فتح) .

الملال » أَورد فيه آثاراً عن السَّلف الصالح .

وقال الخطيب في « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (٢ / ١٢٧) تحت باب « كراهية إملال السَّامع وإِضجاره بطول إملاء الحديث وإِكثاره » :

« ينبغي للمحدث أَن لا يطيل المجلس الذي يرويه ، بل يجعله متوسطاً ويقتصد فيه ، حذراً من سآمة السامع ومَلله ، وأَن يؤدي إِلى فتوره عن الطلب وكسله » .

ثم نقل عن المُبَرِّد قوله :

« من أَطال الحديث وأَكثر القول فقد عرض أَصحابه للملال وسوء الاستماع ، ولأَن يدع من حديثه فضْلةً يعاد إِليها أَصلح من أَن يفضل عنه ما يلزم الطالب استماعه من غير رغبة فيه ولا نشاط له » .

وروى عن عبداللَّه بن المعتز قوله :

« من المحدثين من يُحسن أَن يسمع ويستمع ، ويتقي الإِملال ببعض الإِقلال ، ويزيد إِذا استملى من العيون الاستزادة ، ويدري كيف يَفْصِل ويصل ، ويحكي ويشير ، فذاك يَزين الأَدب ، كما يتزين بالأَدب » .

ومن المعلوم بداهةً أَن المستمعَ أَسرع ملالاً من المتكلم ، وأَنَّ القلوبَ تملّ كما تملّ الأَبدانُ .

ولذلك يستحب استعمال طُرَف الحكمة للترويح عن القلوب ، لما ورد عن الزهري :

« كان رجلٌ يجالس أَصحابَ رسول اللَّه ﷺ ويذاكرهم ، فإِذا كَثُرَ وثَقُلَ عليه الحديث قال : إِنَّ الأُذنَ مَجَّاجةٌ[1]، وإِن للقلب حَمْضة[2] ، أَلا فهاتوا من أَشعاركم وأَحاديثكم »[3].

ولذا كان الزُّهري إِذا سئل عن الحديث يقول : أَحمضونا[4].

قال محمد بن عبدالوهَّاب[5]: « وذلك أَن الإِبل ترعى الخلة وهو ما خلا من النبت ، فتسأمه ، فترعى الحمض وهو الشورق ، فإِذا أَكلَّتَ منه ، اشتهت الخلة ، فترد إِلى الخلة ، فلذا قال : أَحمضونا أَي اخلطوا بالحديث غير الحديث حتى تتفتح النَّفس »[6].

حِرْصُ السَّلف الصالح على مجالس العلم :

وينبغي على الطالب المُتعلِّم أَن يحرص على مجالس العلم ، وأَن

(١) تقذف الكلام وتستكرهه وتملّه .

(٢) شهوة .

(٣) أَخرجه الخطيب في « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (٢ / ١٢٩ - ١٣٠) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن الكبرى » (٦٠٦) .

(٤) أَخرجه الخطيب في « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (٢ / ١٣٠) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن الكبرى » (٦٠٧) .

(٥) أَحد رواة الأَثر السابق عن الزهري .

(٦) « المدخل إِلى السنن الكبرى » (ص : ٣٦٠) .

يَرتَعُ في رياضها كما حرَّضَ على ذلك إمام المتَّقين ﷺ قائلاً :

« إذا مررتم برياض الجنَّة فارتعوا » .

قالوا : وما رياض الجنَّة يا رسول اللَّه ؟

قال : « حِلَقُ الذِّكر ، فإن لله تعالى سياراتٍ من الملائكة يطلبون حِلَقَ الذِّكر ، فإذا أتوا عليهم حَفّوا بهم »[1].

فإذا عيّن العالِمُ المعلِّمُ لطلَّابه اليوم ، وحدَّد المجلس فلا ينبغي لأحد إخلافَ موعده إلَّا أَن يقطعه عن ذلك أَمرٌ يقوم عذره به .

وقد كان السَّلف الأَول الذين سبقونا بالعلم والإيمان يحرصون كلَّ الحرص وأَشدَّه على العلم ومجالسه ، فقد كان حبْرُ الأُمَّة وترجمان القرآن ابن عبَّاس - رضي اللَّه عنهما - يأَتي أَبواب الصَّحابة في عِزِّ الظَّهيرةِ يسأَلهم عن الحديث كما سيأتي بيانه - إن شاء اللَّه .

بل إنَّ أَحدَهم ليفوته حديث فيمرض مرضاً يُلزمه الفراش كما كان شُعْبَةُ بن الحجاج - رحمه اللَّه - يقول :

« إني لأَذاكر الحديث فيفوتني فأَمرض »[2].

---

(١) حسنٌ بشواهده كما بينته في « صحيح كتاب الأَذكار وضعيفه » (٤ / ٤) .

(٢) « شرف أَصحاب الحديث » (ص : ١١٥) .

وكانوا يزدحمون على مجالس العلم ، حتى أَن هشيماً - رحمه اللَّه - كان سببَ موته ازدحامُ الطلبة عليه ؛ كما قال الخطابي - رحمه اللَّه - :

« ازدحم أَصحابُ الحديث على هشيم فطرحوه عن حماره ؛ فكان سببَ موته »[1].

وكانوا يَغْدون في الطُّرقات للَّحاق بمجالس العلم ؛ كما قال شعبةُ بنُ الحجاج - رحمه اللَّه - :

« ما رأَيت أَحداً قط يعدو إِلَّا قلتُ : مجنون أَو صاحبُ حديثٍ »[2].

ومَنْ عرفَ فَضْلَ العِلْمِ ولذَّته فلا يزالُ طالباً للمزيد ، حريصاً عليه ، فهو منهومٌ لا يشبع كما قال رسول اللَّه ﷺ :

« منهومان لا يشبعان : منهومٌ في علمٍ لا يشبع ، ومنهومٌ في دنيا لا يشبع »[3].

---

(١) « العزلة » (ص : ١٠١) .

(٢) « الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع » (١ / ١٥٢) .

(٣) أخرجه الحاكم (١ / ٩٢) ، والبيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرى.» (٤٥١) من طريق قتادة عن أنس .

وصححه الحاكم على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبيُّ .

وتعقبهما شيخنا - حفظه اللّه - في التعليق على « المشكاة » (٢٦٠) قائلاً : علّته أن قتادة مدلس ، وقد عنعنه . =

= وله طريق آخر عن حماد بن مسلم عن حميد عن أنس .

أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (١٠٢٧٩) و « المدخل في السنن الكبرى » (٤٥٠) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١١٣) ، وابن عدي في « الكامل » (٦ / ٢٢٩٨) .

قلتُ : في إسناده ضعف ، كما قال ابن عدي ، وابن الجوزي .

وله شاهد من حديث ابن عبّاس - رضي اللّٰه عنهما - .

أخرجه ابو خيثمة في « العلم » (١٤١) ، والبزّار (١٦٣) ، والطبراني في « الكبير » (١١٠٩٥) و « الأوسط » (١٩٠ - مجمع البحرين) .

قال البزّار : ليث أصابه شبه الاختلاط ، فيبقى في حديثه لين ، ولا نعلمه يروى من وجه أحسنَ من هذا .

وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١ / ١٣٥) : وفيه ليث بن أبي سليم ، وهو ضعيف .

قلتُ : ليث بن أبي سليم مدلس مختلط ؛ فالأمر كما قالا .

وأخرجه الدارمي (١ / ٩٦) موقوفاً على ابن عبّاس ، والصحيح رفعه .

وله شاهد من حديث عبداللّٰه بن مسعود - رضي اللّٰه عنه - .

وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٠٣٨٨) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٣٢٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٤ / ١٣٥٧) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٢١١) .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١ / ١٣٥) : وفيه أبو بكر الداهري وهو ضعيف .

وأخرجه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرى » (ص : ٣٠٠) ، والدارمي (١ / ٩٦) موقوفاً على عبداللّٰه بن مسعود . =

العلم يؤتى

في وصفِ عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - بأَنَّهم كانوا جلوساً عند رسول اللَّه ، وقوله : « **إِذ طلع علينا رجل** » دلالة أَن العالم يؤتى في مجلسه ؛ لأَن من حقِّ العلم أَن يُؤتى ولا يَأْتي .

ولذلك ينبغي علىِ العالم اعزاز نفسه وترفعه عن المُضِيِ إِلى منزل من يريد العلم ؛ لأَنَّه هوانٌ بالعِلْمِ وذلَّةٌ أَن يحمله العالِمُ المُعَلِّمُ إِلى بيت الطالب المُتعلِّم .

فهؤلاء الصَّحابةُ - رضي اللَّه عنهم - لم يأَنفوا أَن يأْتوا مجالس العلم ، وكذلك جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام رحل إِليها تَعْلِيماً للصَّحابة - رضي اللَّه عليهم - ، وتنبيهاً على حَقِّ العلم على المُتَعَلِّمِ .

وعلى ذلك سار السَّلَفُ الأَول - رضي اللَّه عنهم - :

= قال البيهقي : هذا موقوف وهو منقطع .

وبالجملة ؛ فالحديث ثابت بهذه الطرق والشواهد ، وبذلك جزم السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٢٠٦) فقال :

« وهي وإِن كانت مفرداتها ضعيفة فبمجموعها تقوى » .

واللَّه أَعلى وأَعلم .

عن ابن عبَّاس - رضي اللَّه عنهما - قال :

« لما قُبِضَ رسول اللَّه ﷺ قلت لرجل من الأَنصار : هَلُمَّ فلنسأَل أَصحابَ رسول اللَّه ﷺ فإنهم اليوم كثير .

قال : واعجباً لك يا ابن عبَّاس ، أَترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أَصحاب رسول اللَّه ﷺ من فيهم ؟!

قال : فترك ذاك ، وأَقبلت أَنا أَسأَل أَصحاب رسول اللَّه ﷺ عن الحديث ؛ فإن كان ليبلغني الحديث عن الرَّجل فآتي بابه وهو قائل[1]، فأَتوسدُ رِدائي على بابِه ، تَسْفي[2]الريحُ عَليَّ من التُّرابِ .

فيخرج فيقول : يا ابن عمِّ رسول اللَّه ما جاء بك ألا أَرسلت إليَّ فآتيك !

قال : **أَنا أَحقُّ أَن آتيك** ، فأَسأَله عن الحديث .

قال : فعاش ذلك الأَنصاريَّ حتى رآني وقد اجتمع الناسُ حولي يسأَلوني ، فيقول : هذا الفتى كان أَعقلَ منِّي »[3].

(١) نائمٌ وقت القيلولة ، وهي سنَّةٌ نبويَّة لقول رسول اللَّه ﷺ : « قيلوا فإن الشياطين لا تقيل » .

وهو حديث حَسَنٌ ، وانظر « السلسلة الصحيحة » لشيخنا (١٦٤٧) .

(٢) تذرو .

(٣) أَخرجه الحاكم (١ / ١٠٦ - ١٠٧) ، والبيهقي في « المدخل إلى السنن » (٦٧٣) ، والخطيب في « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب =

وتلقى ذلك التَّابعون ومن اتبعهم بإحسان حتى أطلق الإمام مالك - رحمه اللَّه - مقولته المشهورة : « العلم يؤتى ولا يأْتي » التي تَحَدَّث بها الزَّمان ، وسارت بها الرُّكبانُ .

صيانةُ العلمِ وتعظيمُه في النُّفوس :

وبذلك صانَ أَهلُ العلمِ العِلمَ فصانَهم ، وعظَّموه في نُفوسِ طُلَّابه فعظَّمهم ، وصدق علي بن عبدالعزيز الجرجاني في قوله :

يقــولــون فيــك انقبــاضٌ وإنمـــا رأَوا رجلاً عن موقفِ الذُّلِّ أَحْجما
أَرى الناسَ مَنْ داناهم هانَ عندهم ومن أَكْرَمَتْهُ عِزةُ النَّفْسِ أُكْرِما
وما زلتُ منحازاً بعرضـي جــانباً من الـذِّم اعتدُّ الصِّيانة مغنما
ولم اقض حقَّ العلم إن كان كلما بـدا طَمَـعٌ صيَّرته لي سُلَّـما
إذا قيل هذا مَنهَلٌ قلت : قـد أَرى ولكن نفس الحرُّ تحتمل الظَّما

= السامع » (١ / ١٥٨ - ١٥٩) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ٨٥) .

قال الحاكمُ : هو **أَصل في طلب الحديث وتوقير المحدث** .

قلت : وفي هذا الأَثر آداب للمتعلمين من جملتها :

١ - عدم الإِثقال على الشيوخ في غير وقت المجلس ، وعدم ازعاجهم في وقت تفرغهم لأَنفسهم أَو أَهلهم ، وخلوتهم ، وقيلولتهم .

٢ - فضل طلب العلم في الصغر ، وأَنه أَجدى وأَنفع .

فما أَحرى طلبة العلم أن يتبلغوا بهذه الآداب الرضيَّة ، ويتزودوا بهذه الأَخلاق الإِيمانيَّة ؛ ليعيدوا عنوان الصحوة العلمية السَّلفيَّة .

وما كـل برقٍ لاح لي يســـتفزُّني ولا كل أَهلِ الأَرض أَرضاه مُنعما
ولـم أبتذل في خدمةِ العلم مُهْجَتي لأَخدُمَ من لاقيتُ بل لأُخدما
أَأَشـقى بــه غرساً وأجنيــه ذلــةً إذن فاتباعُ الجهلِ قد كان أَحْزما
ولو أَن أَهلَ العلم صانوه صـــانهم ولو عَظَّموه في النُّفوس لعُظِّما
ولــكن أهانــوه فهــانوا ودنَّســوا مُحَيَّاه بالأَطماع حتى تجَهَّما[1]

وإِتيانُ أَهل العلم في مجالسهم فيه تعظيم للعلم كما قال مَعْمَرُ سمعت الزهري يقول :

« إن كنت لآتي بابَ عروةٍ فأجلس ثم انصرف فلا أَدخل - ولو شئت أَن أَدخل لدخلت - **إعظاماً له** »[2].

وفيه تطييبٌ لنفوس حامليه ؛ فعن ابن عبَّاس - رضي اللَّه عنهما - قال :

« وجدت عامَّة عِلْمِ رسول اللَّه ﷺ عند هذا الحيِّ من الأَنصار ، إن كنت لأَقيل بباب أَحدهم ، ولو شئت أَن يؤذن لي

(١) انظر لزاماً : « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ٣٧١) و « يتيمة الدهر » للثعالبي (٤ / ٢٣) .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » (٣ / ٣٦٢) ، والبيهقي في « المدخل إلى السنن » (٦٧٥) ، والخطيب في « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ١٥٩) .

عليه لأذن لي عليه ، **ولكن ابتغي بذاك طيب نفسه** »[1].

إِيَّاكم وأَبواب السلطان :

ومما هو جديرٌ بالتنبيه في هذا المقام : أَنَّه ينبغي على أَهْلِ العلم الابتعادُ عن أَبواب السُّلطان .

قال سفيان الثوري - رحمه اللَّه - يوصي عباد الخواص - رحمه اللَّه - :

« وإِيَّاك والأمراءَ أَن تدنو منهم وتخالطهم في شيءٍ من الأَشياء ، وإِيَّاك أَن تُخدع ، فيقال لك : تَشَفْعُ ، وتدرأُ عن مظلومٍ ، أَو تردُّ مظلمةً ، فإِنَّ ذلك خديعةُ إِبليس ، وإِنَّما اتَّخذها فُجَّار القُرَّاء سُلَّماً »[2].

قال ابن الجوزيَّ - رحمه اللَّه - في « تلبيس إِبليس » (ص : ١٢١ - ١٢٢) :

« ومن تلبيس إِبليس على الفُقَهاء مخالطتُهم الأُمراء والسَّلاطين ،

---

(١) أَخرجه أَبو خيثمة في « العلم » (١٣٣) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٦٧٤) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٤٢) ، و « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السَّامع » (١ / ١٥٩) .

(٢) وهي وصيَّة جامعة مشهورةٌ في الآداب ، والحكم ، والأمثال والمواعظ ، متداولة لدى أَهل العلم .

وانظر تخريجها وشرحها في كتابي : « من وصايا السلف » (ص : ١٩ - ٢٥) نشر دار ابن الجوزي - الدمام .

ومداهنتُهم ، وتركُ الإنكار عليهم مع القُدْرةِ على ذلك .

وربما رخَّصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه ؛ لينالوا من دنياهم عَرَضاً ، فيقع بذلك الفسادُ ؛ لثلاثة أَوجه :

الأَول : الأَمير ؛ يقول : لولا أَنَّي على صواب ؛ لأَنكر عليَّ الفقيه ، وكيف لا أَكون مصيباً وهو يأْكُلُ من مالي ؟!

الثاني : العامي ؛ أَنَّه يقول : لا بأس بهذا الأَمير ، ولا بماله ، ولا بأَفعاله ؛ فإِنَّ فلاناً الفقيه لا يبرحُ عِنْده .

الثالث : الفقيه ؛ فإِنَّه يُفْسدُ دينه بذلك .

وقد لَبَّس إِبليسُ عليهم في الدُّخول على السُّلطان ، فيقول : إِنَّما تدخل لتشفعَ في مُسْلم .

وينكَشِفُ هذا التلبيس بأَنَّه لو دخل غيرُه يشفع ؛ لما أَعجبَهُ ذلك ، وربما قدح في ذلك الشخص ؛ لتفرده بالسلطان .

وفي الجملة ، فالدخولُ على السَّلاطين خطرٌ عظيمٌ ؛ لأَنَّ النيَّة قد تحسُن في أَول الدخول ، ثم تتغير بإِكرامهم وإِنعامهم ، أَو بالطمعِ فيهم ، ولا يتماسك عن مداهنتهم ، وترك الإِنكارِ عليهم .

وقد كان سفيانُ الثوريُّ - رضي الله عنه - يقول :

« ما أَخافُ من إِهانَتهم لي ، إِنَّما أَخافُ من إِكرامهم ، فيميلُ

القلب إليهم » أ.هـ .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه اللَّه - في « شرح حديث ما ذئبان جائعان » (ص : ٥٣) :

« وقد كان كثيرٌ من السَّلف يَنْهَوْن عن الدُّخولِ على الملوك لمن أَراد أَمرَهم بالمعروف ونهيهم عن المُنْكر أَيضاً .

وممن نهى عن ذلك عمر بن عبدالعزيز ، وابن المبارك ، والثوري ، وغيرهم .

وقال ابن المبارك :

ليس الآمرُ النَّاهي عندنا من دخل عليهم ، فأَمرهم ونهاهم ، إِنَّما الآمرُ النَّاهي من اعتزلهم .

وسببُ هذا ما يُخشى من فتنة الدُّخول عليهم ، فإِن النَّفس قد تُخَيِّلُ للإِنسان إِذا كان بعيداً أَنَّه يأْمرهم وينهاهم ويغلظ عليهم ، فإِذا شاهدهم قريباً ؛ مالت النَّفسُ إِليهم ؛ لأَنَّ محبة الشَّرف كامنةٌ في النَّفس له ، ولذلك يداهنهم ويلاطفُهم ، وربما مال إِليهم وأَحبَّهم ، ولا سيَّما إِنْ لاطفوه ، وأَكرموه ، وقَبِلَ ذلك منهم .

وقد جرى ذلك لعبد اللَّه بن طاوس مع بعض الأُمراء بحضرة أَبيه طاوس ، فوبَّخه طاوس على فعله ذلك .

وكتب سفيان الثوري إلى عباد بن عباد ، وكان في كتابه :

إيَّاك والأُمراء أَن تدنو منهم ، أَو تخالطهم في شيءٍ من الأَشياء ... إلخ » أ.هـ .

قال علاَّمةُ الأَندلس ابنُ عبدالبر - رحمه اللَّه - في « جامع بيان العلم » (١ / ١٨٥ - ١٨٦) خاتماً الباب الذي ذكر فيه ذمَّ السَّلَفِ للدخولِ على الأُمراء والسلاطين :

« معنى هذا الباب كلِّه في السُّلطان الجائرِ الفاسقِ ، فأَمَّا العدل منهم الفاضل ؛ فمداخلتُه ورؤيتُه وعونُه على الصَّلاح من أَفضل أَعمال البِرِّ ، أَلا ترى أَن عمر بن عبدالعزيز إِنَّما كان يصاحبُه جلَّةُ العلماءِ ؛ مثل عروة بن الزُّبير وطبقته ، وابن شهاب وطبقته .

وقد كان ابن شهاب يدخل إِلى السُّلطان عبدالملك وبنيه بعده .

وكان مِمَّن يدخل على السلطان : الشعبيُّ ، وقبيصةُ ، وابن ذؤيب ، ورجاء بن حيْوة الكندي ، وأَبو المقدام - وكان عالماً فاضلاً - والحسن ، وأَبو الزناد ، ومالك بن أَنس ، ، والأَوزاعي ، والشافعي ، وجماعة يطول ذكرهم .

وإذا حضر العالمُ عند السلطان غبَّاً فيما فيه الحاجة ، وقال خيراً ، ونطق بالعلم ؛ كان حسناً ، وكان في ذلك رضوان اللَّه إِلى يوم يلقاه .

ولكنها مجالسُ الفتنةُ فيها أغلب ، والسلامة منها ترك ما فيها » أ.هـ .

قلتُ : صدقوا وبرُّوا ونَصَحوا - رحمهم اللَّه - فقد كانوا كالنَّذير العُريان الذي لا يكذبُ أهلَه ، وكيف لا يكونون كذلك وهم يسمعون قولَ رسولِ اللَّه ﷺ :

« من أَتى السلطان ؛ افتتن »[1].

وينبغي أَن يكون أَهلُ العلم كأَبي حازم فقد أَرسل إِليه عبدالرحمن بن خالد : « أَن ائتنا حتى نسأَلك وتحدثنا » .

فقال أَبو حازم : « معاذَ اللَّه أَدركت أَهل العلم لا يحملون الدِّين إِلى أَهلِ الدنيا ، فلن أَكون بأَول من فَعَلَ ذلك ، فإِن كان لك حاجةٌ فأَبلغنا » .

---

(١) أَخرجه أَبو داود (٢٨٥٩) ، والترمذي (٢٢٥٦) ، والنَّسائي (٧ / ١٩٥ - ١٩٦) ، وأَحمد (١ / ٣٥٧) ، وغيرهم .

من طريق سفيان عن أَبي موسى عن وهب بن منبه عن ابن عبَّاس .

وإِسناده ضعيف ؛ لأَن أَبا موسى مجهول .

ولكن له إِسناد آخر عند البيهقي في « شعب الإِيمان »(٣ / ٢ / ٢٤٨) ، فبه يتقوَّى إِن شاء اللَّه .

وله شاهدان خرجتهما في رسالتي : « الرياء ذمه وأَثره السيئ في الأُمَّة » (ص : ٣٤) .

وبهما يصح الحديث ، والحمد للَّه أَولاً وآخراً .

فتصدى له عبدالرحمن وسأل منه وقال له : « لقد ازددت علينا بهذا كرامة »[1].

عن يوسف بن أَسباط قال : سمعت سفيان الثوري يقول :

« إِذا رأَيت القارئ يلوذ بباب السلطان فاعلم أَنَّه لص ، فإِذا رأيته يلوذ بالأَغنياء فاعلم أَنَّه مرائي »[2].

---

(١) « حلية الأَولياء » (٣ / ٢٣٨) .

(٢) المصدر السابق (٦ / ٣٨٧) .

إِصلاحُ العالم هيئته

في قول عمر - رضي اللَّه عنه - واصفاً جبريل عليه السَّلام :

« **شديدُ بياض الثّياب شديد سواد الشّعر ، لا يرى عليه أَثرُ السَّفر** »

دلالةٌ على أَنَّ العالمَ المُعَلِّم ينبغي أَن يكون في مَجْلسه وحال روايتِه على أَكمل هَيْئَتِه وأَفضل زينته ، وعليه أَن يتعاهد نفسه قبل ذلك بـإِصلاح أُموره التي تجمله عند الحاضرين من المُوافقين والمُخالفين .

ثـيــابـــه :

وكذلك المؤمن يُحبُّ أَن يكون ثوبُه نظيفاً ونعلُه حسنةً ، فعن عبداللَّه بن مسعود - رضي اللَّه عنه - عن النَّبيّ ﷺ قال :

« لا يدخل الجنَّةَ من كان في قلبه مثقال ذرَّةٍ من كبر » .

قال رجل : إِنَّ الرجل يُحبُّ أَن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حسنةَ .

فقال : « إِنَّ اللَّه جميلٌ يحبُّ الجمال الكبْرُ بَطَرُ[1] الحقِّ وغَمْطُ[2] النَّاس »[3].

---

(١) هو دفعُه وإِنكارُه ترفعاً وتجبراً .

(٢) احتقارهم .

(٣) أَخرجه مسلم (٩١) (١٤٨) .

ويُسْتَحَبُّ له لبسُ الثِّياب البيض كما كانت ثيابُ جبريل عليه الصلاة والسلام التي رآه بها الصحابة - رضوان اللَّه عليهم - ، وكذلكَ قال رسولُ اللَّه ﷺ :

« البسوا من ثيابكم البياض ، فإِنَّها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم »[1].

ولكن عليه أَن يتجنَّبَ لبس أَرفع الثِّياب خوفاً من الاشتهار بها أَو تسمو إِليه الأَبصارُ ، ولأَن ذلك من التَّواضع كما قال رسولُ اللَّه ﷺ :

« من ترك اللباس تواضعاً للَّه وهو يقدرُ عليه دعاه اللَّهُ يوم القيامة على رؤوسِ الخلائق حتى يُخَيِّرَه في أَي حُلل الإِيمان شاء يَلْبَسها »[2].

إِكرام الشَّعر والخضاب

وعليه أَن يكرمَ شعرَه ؛ فيسكنَ شَعْثَه ، ويدهَنه بالطيِّب ، لقول

(١) أَخرجه أَبو داود (٣٨٧٨) و (٤٠٦١) ، والترمذي (٩٩٤) وابن ماجه (١٤٧٢ و ٣٥٦١) وغيرهم من حديث ابن عبَّاس - رضي اللَّه عنهما - .

والحديث صححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي وشيخنا .

وقال الترمذي : وهو الذي يستحبه أَهلُ العلم .

(٢) صحيح بطرقه ؛ كما بينته في رسالتي « التواضع في ضوء الكتاب والسنَّة الصحيحة » (ص : ١٢) نشر دار ابن القيم - الدمام .

رسول اللَّه ﷺ :

« من كان له شعر فليكرمه »[1].

ويُغَيِّر شيبه بالخِضابِ مُخالفةً لليهود والنَّصارى ، والمستحبُ أَن يكون بالحنَّاء والكَتَمِ .

عن أَبي هريرة - رضي اللَّه عنه - أَن رسول اللَّه ﷺ قال :

« إِنَّ اليهود والنَّصارى لا يصبغون فخالفوهم »[2].

قال : الشوكاني - رحمه اللَّه - في « نيل الأَوطار » (١ / ١٤٨) معلقاً على هذا الحديث :

« يدل على أَنَّ العلَّة في شرعيَّة الصّباغِ وتغيير الشَّيب هي مخالفةُ اليهود والنَّصارى ، وبهذا يتأَكد استحبابُ الخِضابِ ، وقد كان رسولُ اللَّه ﷺ يبالغُ في مخالفة أَهل الكتاب ويأْمرُ بها .

وهذه السنَّةُ قد كَثُرَ اشتغالُ السَّلف بها ؛ ولهذا ترى المؤرخين في التَّراجِم لهم يقولون : وكان يخضبُ وكان لا يخضبُ .

---

(١) أَخرجه أَبو داود (٤١٦٣) وغيره من حديث أَبي هريرة - رضي اللَّه عنه - .

وصححه شيخنا - حفظه اللَّه - في « الصحيحة » (٥٠٠) .

(٢) أَخرجه البخاري (١٠ / ٣٥٤ - فتح) ، ومسلم (٢١٠٣) من حديث أَبي هريرة - رضي اللَّه عنه -

قال ابنُ الجوزي : قد اختضبَ جماعةٌ من الصَّحابة والتَّابعين ، وقال أَحمدُ بن حنبل - وقد رأَى رجلاً قد خضب لحيته - : إِنِّي لأَرى رجلاً يُحيي مَيِّتاً من السُّنَّة وفرح به حين رآه صَبَغ بها » أَ.هـ .

وعليه أَن يتجنَّب السَّواد .

عن جابر بن عبداللَّه - رضي اللَّه عنه - قال : أُتيَ بأَبي قَحَافَةَ يوم فَتْحِ مَكَّةَ ورأْسُهُ ولحيتُهُ كالثَّغامَةِ[1] بياضاً ، فقال رسول اللَّه :

« غيروا هذا بشيء واجتنبوا السَّواد »[2].

ريحُــــه :

وعليه أَن يتجنب من الأَطعمة ما كُرِه ريحُه كالثَّومِ والبَصَل والكرَّاثِ وبخاصةِ الدُّخان الذي ابتلي به كثيرٌ من الناس ؛ فإِنَّ مجالس العلمِ تشهدُها الملائكةُ وتحفُّها ، وهي تتأَذى مما يتأَذى منه بنو آدم .

وقد ورد في رواية الحديث عند النَّسائي :

« إِذا أَقبل رجل أَحسن النَّاس وجهاً ، **وأَطيب النَّاس ريحاً** ، كأَنَّ ثيابه لم يمسَّها دنس » .

---

(١) شجرة تبيض كالثلج ، شبه بياض الشيب به .
(٢) مسلم (٢١٠٢) .

وبالجملة فعليه المحافظة على خصال الفطرة .

عن عائشة - رضي اللَّه عنها - قالت : قال رسول اللَّه ﷺ :

« عشرةٌ من الفطرةِ : قصُّ الشَّاربِ ، وإعفاءُ اللَّحيةِ ، والسِّواكُ واستنشاقُ الماء ، وقَصُّ الأَظفارِ ، وَغَسْلُ البَراجِمِ[1]، ونتف الإِبطِ ، وحَلْقُ العانة ، وانتقاصُ الماءِ .

قال زكريا[2]: قال مصعب[3]: ونسيتُ العاشرة ، إِلَّا ان تكون المضمضة .

زاد قتيبة[4]قال وكيعٌ[5] : انتقاص الماء يعني الاستنجاء[6] .

---

(١) عُقَدُ الأَصابع ومفاصِلُها كلّها .

(٢) هو ابن أَبي زائدة .

(٣) هو ابن شيبة .

(٤) هو ابن سعيد .

(٥) هو ابن الجرَّاح بن مليح .

(٦) أَخرجه مسلم (٢٦١) .

توقيرُ مَجلسِ العِلمِ

في قول عمر بن الخطَّاب - رضي اللَّه عنه - : « **حتى جلس إلى النَّبيِّ ﷺ فأَسندَ ركبتَيه إِلى ركبتيه ووضع يديه على فخذِه** [1]» دلالةٌ على وجوب توقير مجلس العلم والجلوس بين يدي أَهل العلم بأَدبٍ وخشوعٍ ؛ حيث جاء في حديث أَبي ذر وأَبي هُريرة - رضي اللَّه عنهما - عند النَّسائي قالا :

« كان رسول اللَّه ﷺ يجلس بين ظهراني أَصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أَيهم حتى يسأَل ؛ فطلبنا إِلى رسول اللَّه ﷺ أَن نجعل له مجلساً يعرفُه الغريب إِذا أَتاه فبنينا له دكاناً من طين كان يجلس عليه ، وإِنَّا لجلوس ورسول اللَّه ﷺ في مجلسه إِذا أَقبل رجل أَحسن النَّاس وجهاً ، وأَطيب النَّاس ريحاً ،كأَنَّ ثيابه لم يمسَّها دنَسٌ ،

---

(١) وهذه الجلسة تشبه جلسة التشهد في الصَّلاة ، وكان هذا ديدن طلاب العلم حتى عُرِفوا بأَصحاب الثَّفَنات ، وهي الركب ؛ لجثوهم عليها في مجالس العلم .

حتَّى سلَّمَ في طرف البساط فقال : السَّلامُ عليك يا محمد فردَّ عليه السَّلام قال : **أدنو يا محمد ، قال : « ادنُه » فما زال يقول : ادنو مراراً ، ويقول له : « ادنُ » حتى وضع يده على ركبتي رسول اللَّه ﷺ »** .

الصحابةُ يُوَقِّرُوْنَ رسولَ اللَّه ﷺ :

وكان الصحابة - رضي اللَّه عنهم - إِذا جلسوا إِلى النَّبيِّ ﷺ أَطرقوا كأَنَّما على رؤوسهم الطَّير .

عن أَبي سعيد الخدري - رضي اللَّه عنه - : أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قام على المنبر فقال :

« إِنَّما أَخشَ عليكم من بعدي ما يُفْتَحُ عليكم من بركات الأَرض ، ثم ذكر زَهْرَة الدنيا فبدأَ بإِحداهما وثَنَّى بالأُخرى .

فقام رجل : فقال : يا رسول اللَّه أَو يأْتي الخَيْرُ بالشَرِّ ؟

فسكت عنه النَّبيّ ﷺ ، قلنا يوحى إِليه ، **وسكت النَّاس كأَن على رؤوسهم الطير** » الحديث[1].

قال ابنُ الأَنباري : « قولهم : جلساءُ فلانٍ كأَنَّما على رؤوسِهم الطيرُ في هذا قولان :

---

(١) أَخرجه البخاريُّ (١ / ٤٨ - ٤٩ - فتح) .

أَحدهما : أَن يكون المعنى أَنَّهم يسكنون فلا يَتَحَرَّكون ، ويغضون أَبصارَهم ، والطيرُ لا تقعُ إِلَّا على ساكنٍ ، يقال للرجل إِذا كان حليماً وقوراً : إِنَّه لساكن الطير الطائر ، أَي كأَن على رأسه طيراً ؛ لسكونه .

والقول الثاني : أَنَّ الأَصل في قولهم : كأَنَّما على رؤوسهم الطَّير ؛ أَن سليمانَ بن داود كان يقولُ للرِّيح : أَقلِّينا ، وللطيْرِ أَظلِّينا ، فتقله وأَصحابه الريحُ ، وتظلهم الطيرُ ، وكان أَصحابه يغضون أَبصارهم هيبةً له وإِعظاماً ، ويسكنون فلا يَتَحرَّكون ، ولا يتكلَّمون بشيءٍ إِلَّا أَن يسأَلهم فيجيبوا ، فقيل للقوم إِذا سكنوا : هم علماءُ وقراء كأَنَّما على رؤوسِهم الطيرُ ، تشبيهاً بأَصحاب سليمان عليه السَّلام »[١].

وقد كان بعضُ الصَّحابَةِ - رضي اللَّه عنهم - لا ينظرُ إِلى وجه رسول اللَّه ﷺ إِلَّا لماماً ، وذلك إِعظاماً له ، لأَنَّه يطرقُ إِذا جالسه حتى لو أَردته أَن يصف رسول اللَّه لما استطاع .

عن عبدالرحمن بن شُماسة المَهْرِي قال :

حضرنا عمرو بن العاص وهو في سِيَاقَةِ الموت[٢]، فبكى

(١) « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السَّامع » (١ / ١٩٢ - ١٩٣) .
(٢) حال حضور الموت .

طويلاً ، وحوَّلَ وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول :

يا أَبتاه أَما بشَّرك رسول اللَّه ﷺ بكذا ؟ أَما بشَّرك رسول اللّه ﷺ بكذا ؟

قال : فأَقبلَ بوجهِهِ فقال :

إنَّ أَفضل ما نُعِدُّ شهادة أَن لا إله إلَّا اللَّه ، وأَنَّ محمَّداً رسول اللَّه ؛ إنِّي قد كنتُ على أَطباقٍ ثلاث[١]:

لقد رأَيتني وما أَحد أَشد بُغضاً لرسول اللَّه ﷺ منّي ، ولا أَحبَّ إليَّ أَن أَكون قد استمكنتُ منه فقتلته ، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أَهل النَّار .

فلما جعل اللَّه الإِسلام في قلبي أَتيت النَّبيَّ ﷺ فقلت : ابسط يمينك فلأُبايعك فبسط يمينه .

قال : فقبضت يدي .

قال : « ما لك يا عمرو ؟ » .

قلت : أَردت أَن أَشترط .

قال : « تشترط بماذ ؟ » .

---

(١) أَحوال ثلاث كما قال تعالى : ﴿ لتركبنَّ طبقاً عن طبق ﴾ [الانشقاق : ١٩] .

قلت : أن يغفر لي .

قال : « أَما علمت أَنَّ الإِسلام يهدم ما كان قبله ، وأَنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأَنَّ الحجَّ يهدم ما كان قبله ؟ » .

وما كان أَحدٌ أَحبَّ إليَّ من رسول اللَّه ﷺ ولا أَجلَّ في عيني منه ، وما كنت أُطيق أَن أَملأَ عينيَّ منه إِجلالاً له ، ولو سئلتُ أَن أَصفهُ ما أَطقتُ ، لأَني لم أَكن أَملأَ عينيَّ منه ، ولو مت على تلك الحال لرجوت أَن أَكون من أَهل الجنَّة .

ثمَّ وَلينا أَشياءَ ما أَدري ما حالي فيها ؟ فإِذا أَنَ مُتُّ ، فلا تصحبني نائحة ولا نارٌ ، فإِذا دفنتموني فَشُنُّوا عليَّ التراب شَنّاً[١]، ثم أَقيموا حول قبري قدر ما تُنحرُ جزورٌ ، وَيُقْسَمُ لحمُها حتى استأْنس بكم ، وأَنظُرَ ماذا أُراجعُ به رسلَ ربِّي[٢].

سبيل التابعين في توقير العلماء ومجالسهم :

وسار على مثل ذلك التابعون ومن بعدهم .

عن مغيره قال : « كنا نهاب إِبراهيم[٣] كما يهاب الأَمير »[٤] .

(١) بالشين المعجمة هو الصَّبُّ مفرَّقاً .

(٢) أَخرجه مسلم (١٢١) .

(٣) هو إِبراهيم بن يزيد بن قيس النَّخعي .

(٤) هذه الآثار من « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ١٨٤ - ١٨٥) .

عن أَيوب قال : « كان الرجلُ يجلس إِلى الحَسَنِ ثلاثَ سنين فلا يسأله عن شيءٍ هيبةً له » .

عن عبدالرحمن بن حرمله الأَسلمي قال : « ما كان إِنسان يجترئُ على سعيد بن المسيِّب يسأَله عن شيء حتى يُستَأْذَنُه كما يستأْذن الأَمير » .

وقال ابن الخياط يمدحُ مالك بن أَنس :

يدع الجوابَ فلا يراجع هَيْبَةً والسـائلون نواكِس الأَذقان

نورُ الوقارِ وعزُّ سلطانِ التُّقى فهو المَهِيبُ وليس ذا سُلطان

وعن أَبي عاصم قال : كنا عند ابن عون[1] - وهو يحدِّث - فمر بنا إِبراهيم بن عبدالرحمن بن حسن في موكبه - وهو إِذْ ذاك يُدْعى إِماماً بعد قتل أَخية محمد - فما جَسَرَ أَحدٌ أَن ينظرَ إِليه ، فضلاً عن أن يقومَ هيبةً لابن عون » .

وما ذلك إِلَّا أَن العلم في تصوُّرِهم كان عمليةَ تغييرٍ في سلوك المرءِ نحو الخَيْر ، ولم يكن جمع معلوماتٍ لمجاراة السفهاء ، ومماراة العلماءِ ، والتباهي أَمام العوامِّ ، وتصدر المجالس .

عن الحسن قال : « كان الرَّجُلُ يطلبُ العلمَ فلا يلبث أَن يُرى ذلك في تَخشُّعِهِ وهديه ولسانه وبصره ويده »[2].

(١) هو عبدالله بن عون بن أَرطبان البصري .

(٢) « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع (١ / ١٤٢) و « جامع =

وينبغي على العلماء أَن يُعَظِّمُوا مجالس العلم في نفوس تلاميذهم ، ويوجهوا من يقع في خطأ إِلى الصواب .

عن أَحمد بن سفيان القطان : « كان عبدالرحمن بن مهدي لا يُتَحَدَّثُ في مَجْلِسه ، ولا يُبْرى فيه قَلَمٌ ، ولا يَبْتَسِمُ أَحدٌ ؛ فإِنَّ تحدَّث أَو بَرى قلماً صاح ولبس نعليه ودخل .

وكذا يفعل ابن نُمير ، وكان من أَشَدِّ النَّاس في هذا ، وكان يغضبُ ويصيحُ ، وكان إِذا رأَى من يَبْري قلماً تغَيَّرَ وجهُهُ .

وكان وكيع أَيضاً في مجلِسه كأَنَّهم في صلاةٍ ، فإِنَّ أَنكرَ من أَمرِهم شيئاً انتعل ودخل »[1].

أَنْصاف المتعلمين :

وإِني لأَعجَبُ أَشدَّ العَجَبِ من ناشئة إِذا جلس أَحدُهم في مجلس العلم رأَيته يُضَيِّقُ على العالم في مجلسه ؛ فيزاحمه ، وإِذا سُئِلَ العالمُ سؤالاً سَبَقَه ، وإِذا لم يُعْجِبْه الجوابُ تَغامَز مع بَعْضِ قُرَنائِه .

عن أَبي عاصم النبيل قال : « سمعت سفيان الثوري وقد حضر مجلسه شابٌّ من أَهل العلم ، وهو يترأسُ ويتكلَّمُ ويتكبَّر بالعلم على من هو أَكبر منه .

= بيان العلم » (١ / ١٢٧) .

(١) « الجامع لأَخلاق الرواي وآداب السامع » (١ / ١٩٣) .

قال : فغضب سفيانُ ، وقال : لم يكن السَّلفُ هكذا ، كان أَحدُهم لا يدَّعي الإمامة ، ولا يجلسُ في الصَّدرِ ، حتى يطلب هذا العلم ثلاثين سَنَةً ، وأَنت تَتَكَبَّرُ على من هو أَسنُّ منك ، قم عنِّي ، ولا أَراك تدنو من مجلسي » .

قال : وسمعت سفيان الثوري يقول : « إذا رأَيت الشَّابَّ يتكلَّمُ عند المشايخ - وإن كان قد بلغ من العِلم مبلغاً - فآيس من خيره ، فإنَّه قليلُ الحياء »[1].

قلت : صَدَق سفيانُ وبَرَّ ، فإنَّ السَّلف على خلق كبير ، فعن ابن عمر - رضي اللَّه عنهما - قال : قال رسول اللَّه ﷺ :

« مثل المؤمن كمثل شجرةٍ خضراء لا يسقطُ ورقُها ولا يتحاتُّ » .

فقال القوم : هي شجرةُ كذا وكذا .

قال ابن عمر : فأَرَدت أَن أَقولَ هي النَخْلَةُ ، وأَنا غلامٌ شابٌّ فاستحيت ، فقال رسول اللَّه ﷺ :

« هي النخلة »[2].

---

(١) أَخرجه البيهقي في « المدخل إلى السنن الكبرى » (٦٧٩) .
(٢) أَخرجه البخاري (١٣١) ، ومسلم (٢٨١١) .

وعقب البيهقي[1] على هذا الحديث فقال :

« وعبدالله بن عمر استحيا لصغر سنّه من أن يتكلّم بها بين المشايخ ، وذلك منه محمودٌ ، وأَحبَّ عمرُ - رضي الله عنه - أَن يتكلَّم به لِيَظْهَرَ عِلْمُه ، وكان النَّبيُّ ﷺ استخبر أَصحابه عن تلك الشَّجَرَة فلم يكن الإِخبارُ بها سوءَ أَدبٍ ، وإِنَّما استخبرهم حتى إِنْ لم يعرفوها أَخبرهم به ، والله أَعلم » .

ثم ترى أَحدهم قد وضع رِجْلاً على أُخرى ، وقد تكون قدمه مقابلة لوجه العالم ، ولو سُئل أَحدهم عن مسألة لم يحسن إِلَّا الضحك والقهقهة ؛ فحقه أَن يقال فيه مقولة أَبي زيد الدَّبوسي[2] :

ما لي إِذا أَلزمتُه حُجَّةً قابلني بالضَحِكِ والقَهْقَهَةِ

إِن كان ضحكُ المرءِ من فقهِهِ فالدُّبُّ في الصحراءِ ما أَفقهُه

أَو كما قال سفيان بن عيينة : قدم علينا عبيدالله بن عمر الكوفة ، وذلك منذ زمان ، فلما نظر إِلى أَصحاب الحديث وسوء رعتهم قال :

« شنتم العِلْمَ وأَهله ، لو أَدركني وإِيَّاكم عُمَرُ لأَوجعنا ضرباً »[3].

---

(١) « المدخل إِلى السنن الكبرى » (٦٨٣) .

(٢) « الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفيَّة » (ص : ١٠٩) .

(٣) « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ٤٠٥) .

وما أَجمل قول اللَّيثِ بن سعد ، وقد أَشرفَ يوماً على أَصحاب الحديث ، فرأى منهم شيئاً ؛ فقال :

« ما هذا أَنتم إِلى يسير من الأَدب أَحوجُ منكُم إِلى كثيرٍ من العلم »[1].

ولكن ينبغي أَن يكون النَّكيرُ بالتَّيسير لا بالتَّعسير ، وبالتبْشير لا بالتَّنْفير ، فإِنَّ الرِّفْقَ ما كان في شيء إِلَّا زانه ، وما نزع من شيء إِلَّا شانه ، واللَّه يحبُّ الرِّفْقَ في الأَمر كُلِّه .

التَّربيةُ بالقُدْوَةِ :

وعلى العالم المعلِّم أَن يتجنَّب المزاحَ مع أَهل مجلسه في مجلسه ، فإِنَّه يُسقِطُ الحِشْمة ، ويُذْهِبُ الهيْبة ؛ فإِنَّه إِن مازح الشَّريفَ حَقَد عليه ، وإِن مازح الدنيء اجترأ عليه ؛ لأَنَّ المزاحَ يأْكلُ الهَيْبةَ كما تأْكلُ النَّارُ الهشيمَ .

قال مِسْعرُ بن كدام الهلالي يوصي ابنه[2] :

إِنِّي مَنَحْتُكَ يا كِدامُ نصيحتي ... فاسمع لقول أَبٍ عليك شفيق
أَمَّا المزاحُ والمِراءُ فدعْهُما ... خُلقان لا أَرضاهما لصديق
إِنِّي بلوتهما فلم أَجدهما ... لمجاورٍ جاراً ولا لرفيق

---

(١) « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ٤٠٥) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١ / ٤٠٥) .

والخُرْقُ يُزْري بالفتى في قومه   وعُـــروقُه في النَّاس أَيّ عروق

ولقد كان ربَّانيو هذه الأُمَّة يعلمون حسن الأَدب والسمت لتلاميذهم .

عن الحسن بن إِسماعيل قال : سمعتُ أَبي يقول : « كان يجتمع في مجلس أَحمد زهاء على خمسة آلاف أَو يزيدون ، أَقل من خمس مائة يكتبون ، **والباقون يتعلمون منه حسن الأَدب وحسن السمت** »[1] .

---

(١) « مناقب الإِمام أَحمد بن حنبل » لابن الجوزي (ص : ٢١٠) .

السُّؤالُ مفتاحُ العلمِ

في سؤال جبريل عليه السَّلام لرسول اللَّه ﷺ حول الإِسلام والإِيمان والإِحسان والسَّاعة وأَشراطِها دلالةٌ على أَن السُّؤالَ مفتاحُ العلم ، وبذلك نَطَق الكِتاب العزيز : ﴿ فاسأَلوا أَهلَ الذِّكر إِن كُنْتم لا تَعلمون ﴾ [النحل : ٤٣ ، الأَنبياء : ٧] .

وأَخبر رسولُ اللَّه ﷺ أَنه شفاءٌ من الجهل كما ورد في حديث صاحب الشُّجَّة فقال :

« أَلا سأَلوا حين جهِلوا إِنَّما شفاءُ العيِّ السُّؤالُ »(١).

ولما كان الأَمرُ كما بينت ، فإِن حُسْنَ السُّؤالِ يُعينُ عليه ؛ فمن أَحسن السُّؤال عُلِّم ، ولذلك قال العلَّامة ابن قيم الجوزية - رحمه اللَّه - في « مفتاح دار السَّعادة » (١ / ١٦٩) :

« وللعِلمِ سَتُّ مراتِب : أَوَّلُها حُسْن السُّؤالِ ... ومن الناس من يحرمه لعدم حُسْنِ سؤالِه ، إِما لأَنَّه لا يسأل بحال ، أَو يسأَل عن

(١) صحيح ؛ كما بيَّنته في « تنقيح الإِفادة المنتقى من مفتاح دار السَّعادة » (ص : ١٧٤) نشر دار الصَّحابة - جُدَّة .

شيء وغيره أَهم إِليه ،كمن يسأَلُ عن فُضوله التي لا يَضُرُّ جَهْلُه بها ، ويدعُ مالا غنى له عن معرفته ، **وهذا حالُ كثيرٍ من الجُهّال المُتعلِّمين** » .

قال مجاهد : « لا يتعلَّمُ العِلْمَ مُستحيي ولا مُسْتكبر »[1].

قال الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (١ / ١٤٣) :

« وينبغي أَن لا يمنَعَه الحياءُ من السُّؤال عن أَمرٍ نَزَل به ، فإِنْ غَلَب عليه الحياءُ واحتشم من سؤال الفقيه القى مسأَلته إِلى من يأْنسُ به وينبسط إِليه ؛ ليسأَل الفقيه عنها ، ويخبره بحكمها » .

وعلى الجُمْلة فمن أَراد أَن يبلغ منازِلَ العلماءِ فليبدأ بالسؤال ، ولله درُّ ابن الأَعرابي القائل :

ما أَقرب الأَشياء حين يَسُوقها ... قدرٌ وأَبعدها إِذا لم تُقدر

فسل الفقيه تكُن فقيهاً مثله ... من يسع في عِلْم بذل المهر

فتدبَّر العلم الذي تفتي به ... لا خير في علمٍ بغير تَدَبُّر

ولقد يجدُّ المرءُ وهو مقصر ... ويخيب جد المرء غير مقصر

ذهب الرجال مقتدى بفعالهم ... والمنكرون لكل أَمرٍ مُنْكر

وبقيت في خَلَفٍ يزين بعضهم ... بعضاً ليدفع معور عن معور

واعلم أَن حسن السُّؤال يعينُ العالم على الجوابِ ؛ كما قال

---

(١) أَخرجه الدارمي (١ / ١٣٨) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٤١٠) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٤٤) .

ميمون بن مهران : « حُسْن المَسْأَلة نصفُ الفِقه »[1].

ولذلك لابد من بيان فقه السُّؤال ، لأَن جهل ذلك يؤدي إِلى الخلط .

قال مالكُ بن أَنس جاء ابنُ عجلان إِلى زيد بن أَسلم فسأَله عن شيء فخلط عليه ، فقال له زيد : « اذهب فتعلَّم كيف تسأَل ثم تعال فَسَلْ »[2] .

أَ - أَن يكونَ سؤالَ استفسار لا تعنُّت وَتَجهيل واختبار .

لأَن ذلك شرط السُّؤال كما ورد في كتاب اللَّه : ﴿ فاسأَلوا أَهل الذكر إِن كنتم لا تعلمون ﴾ [النحل : ٤٣ ، الأَنبياء : ٧] فَمَن لم يَعلَم سأَلَ حتى يُعَلَّم .

ولكن يجوزُ لمن يَعْلَم أَن يسأَلَ العالِمَ إِذا أَراد تَعْلِيم الجالسين ؛ كما فعل جبريل عليه السَّلام مع رسول اللَّه ﷺ ؛ فسؤالُه سؤالُ تعليمٍ للصَّحابة - رضي اللَّه عنهم - .

ب - لا يجوزُ السُّؤالُ عمَّا لا يحتاجُ إِليه مما قد يسوءُ السَّائِلَ جوابُه :

---

(١) « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ٢١٣) .
(٢) المصدر السَّابق .

عن أَنسٍ - رضي اللّه عنه - قال : خَطَب رسولُ اللّه ﷺ خطبةً ما سمعت مثلها قط ، قال :

« لو تعلمون ما أَعلم لضحكتُم قليلاً ولبكيتم كثيراً » .

قال : فغطى أَصحابُ رسول اللّه ﷺ وجوههم لهم خنين ، فقال رجل : مَن أَبي ؟

قال : « أَبوك فلان » .

فنزلت هذه الآية : ﴿ لا تسأَلوا عن أَشياء ﴾ [المائدة : ١٠١] .[1]

ت - وكذلك لا يجوزُ السُّؤالُ عن أَشياء قد تفضي إِلى الحرجِ والمَشَقَّة على السَّائل أَو غيره من المُسْلمين :

عن سعد - رضي اللّه عنه - عن النَّبيّ ﷺ أَنَّه قال :

« إِنَّ أَعظمَ المسلمين في المسلمين جُرْماً من سأَل عن شيء لم يُحَرَّم فَحُرِّم من أَجل مسأَلته » .[2]

ث - ولهذا كـان الصَّحـابة والتابعين يكرهون السؤال عن الحوادث قبل وقوعها ، ولا يجيبون عن ذلك .

لأَنَّه تكلُّفٌ نهى اللّهُ عنه ، ونَزَّه نبيّه منه ، وأَمره أَن يقول :

---

(١) أَخرجه البخاري (٨ / ٢٨٠ - فتح) ، ومسلم (٢٣٥٩) .

(٢) أَخرجه البخاري (١٣ / ٢٦٤ - فتح) ، ومسلم (٢٣٥٨) .

﴿ قل ما أَسأَلكم عليه من أَجر وما أَنا من المتكلفين ﴾ [ص : ٨٦] .

قال الرَّبيع بن خثيم : « يا عبدالله ما علَّمك الله في كتابِه من علم فاحمد الله ، وما استأثر عليك به من عِلم فكِلْه إِلى عالِمٍ ولا تتكلَّف ، فإِنَّ الله عزَّ وجل يقول لنبيّه ﷺ :

﴿ قل ما أَسأَلكم عليه من أَجرٍ وما أَنا من المتكلِّفين إِن هو إِلَّا ذكر للعالمين ولتعلمنَّ نبأه بعدَ حين ﴾ [ص : ٨٦ - ٨٨] » .[1]

قال ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ١٣٨ - ١٣٩) :

« وقال جماعةٌ من أَهل العِلْم : إِنَّما الرأيُ المذمومُ المعيب المهجورُ الذي لا يحلُّ النَظَرُ فيه ولا الاشتغالُ به الرأي المبتدَعُ وشبهه من ضُروب البِدَعِ .

وقال آخرون - وهم جمهورُ أَهل العلم : الرأيُ المذمومُ المذكورُ في هذه الآثار عن النَّبيِّ ﷺ وعن أَصحابه والتابِعين هو القولُ في أَحكامِ شرائعِ الدِّين بالاستحسان والظُّنون ، والاشتغالِ بحفظ المُعْضلات والأُغلوطاتِ ، وردِّ الفروعِ والنَّوازل بعضها على بعض قياساً دون ردِّها على أُصولها والنظر في عللها واعتبارها ، فاستعمل فيها الرأي قبل أَن تنزل ، وفُرعت وشققت قبل أَن تَقَعَ

(١) « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ١٣٦) .

وتكلم فيها قبل أَن تكونَ بالرأي المضارع للظَّنِّ .

قالوا : ففي الاشتغال بهذا والاستغراق فيه تعطيلٌ للسُّنَنِ ، والبعثُ على جَهلها ، وتَركُ الوقوفِ على ما يلزم الوقوف عليها منها ومن كتاب اللَّه عزَّ وجل ومعانيه » أ.هـ .

قلت : ولو كان هذا التَّشقيقُ والتَّفريعُ والافتراض للتَّدَرُّبِ على مسائِل الفقه ؛ كما أَفاده الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه اللَّه - في « فتح الباري » (٨ / ٢٨٢) .

جـ - وقد أَورد الخطيب البغدادي - رحمه اللَّه - في : « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ٢١١ - ٢١٤) فصولاً في ذلك نورد رؤوسها لأَهميتها :

* ومن الأَدب إِذا روى المُحَدِّثُ حديثاً ؛ فعرض للطالب في خلاله شيءٌ أَراد السؤال عنه أَن لا يسأَل عنه في تلك الحال ، بل يَصبِرُ حتى ينهي الراوي حديثه ثم يسأَل عمَّا عرض له .

* وليتجنَّب سؤالَ المحدث إِذا كان قلبُه مَشغولاً .

* ولا ينبغي أَن يسأَلَه وهو قائمٌ ، ولا وهو يمشي ، لأَن لكل مقام مقالاً ، وللحديث مواضع مخصوصة دون الطُّرقات ، والأَماكن الدنيئة .

* يجب أَن يَذْكُرَ السائِلُ للمُحَدِثِ طُرقَ الحديث الذي يريد أَن يحدثه به ، فإِذا كان للحديث طُرُقٌ مُتَّسِعَةٌ نَصَّ السائلُ على

أَحسنها ، وَعينَّ ما يستفيد سماعه منها .

* إِذا أَجابَ المحدثُ الطالبَ إِلى مسأَلته وحدثه ، فيجب أَن يأخذ منه العفو ولا يضجر .

حـ - ويجوز سؤالُ الفقيه أَو العالِم عن دَليله .

قال الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٤٨) :
« وإِذا أَجابَه الفقيه عن مسأَلةٍ جاز أَن يستفهمه عن جوابه أَقاله عن أَثر أَم عن رأْي » .

خـ - وتُكره مراجعة الفقيه تعنّتاً .

قال الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٤٩) :
« وإِذا استفهم المُتَعَلِّم الفقيه فأَفهمه ثم عاد فاستفهمه جاز للفقيه أَن يزيده ... فإِن راجعه بعد ذلك فله أَن يأْخذ بلسانه ، لأَن كثرة المراجعة تُغَيِّرُ الطِّباعَ ، ولكن يستحب للفقيه الرفق والمداراة والإِحتمال » أ.هـ بتصرف .

د - ويجوز له أَن يسأَل عما غمض من الكلام .

عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : « صليت مع رسول الله ﷺ ليلةً فأَطال القيام حتى هممت بأَمر سوءٍ » .

قيلَ : وما هممت به ؟

قال : « هممت أَن أَجلس وأَدعه »[1].

---

(١) أَخرجه البخاري (٣ / ١٩ - فتح) ، ومسلم (٧٧٣) .

لا أدري نصفُ العلمِ

في قول رسول اللَّه ﷺ : « **ما المسْؤولُ عنها بأَعلمَ من السَّائل** » - عندما سأله جبريلُ عليه السَّلام عن السَّاعة - دلالةٌ أَنَّ العالمَ إِذا سئل عن شيءٍ لا يَعْلَمُه ينبغي أَن يقول : لا أَعلم .

وكذا قول عمر - رضي اللَّه عنه - : « **اللَّهُ ورسولُه أَعلم** » - عندما سأَله رسول اللَّه ﷺ : « يا عمر أَتدري من السَّائل ؟ » .

من تواضع رفعت حكمَتُه :

وهذا لا يُنْقصُ قَدْرَ العالم شيئاً بل هو من ورعه ودينه ، لأَنَّ فوق كلِّ ذي علمٍ عليمٌ .

وليتذكر من وقَفَ هذا الموقف أَن هذا من كمال دينه ؛ لأَنَّ الملائِكة المقرَّبين لم تستح من هذا الحقِّ المُبين عندما قال لهم ربُّ العالمين : ﴿ أَنبؤني بأَسماء هؤلاء إِن كنتم صادقين ﴾ ، فقالوا : ﴿ سبحانك لا علم لنا إِلَّا ما علمتنا إِنك أَنت العليم الحكيم ﴾ [البقرة : ٣٤] .

وقد سُئِل الشَّعبِيُّ - رحمه اللَّه - عن شيءٍ فقال : « لا أَدري » .

فقيل له : أَما تستحي من قولِك لا أَدري وأَنت فقيهُ العِراقين ؟

فقال : « لكن الملائكة لم تستح حين قالت : ﴿ سبحانك لا علم لنا إِلَّا ما علَّمتنا ﴾ »[1].

وليتأَمل من عرف قدر نفسه قولَ اللَّه تعالى لرسوله الأَمين : ﴿ قل ما أَسأَلكم عليه أَجراً وما أَنا من المُتَكَلِّفين ﴾ [ص : ٨٦] .

عن عبداللَّه بن مسعود - رضي اللَّه عنه - قال : « من كان عنده علم فَلْيَقل ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : اللَّهُ أَعلم ، فإِنَّ اللَّه قال لنبيّه عليه السلام : ﴿ قل ما أَسأَلكم عليه أَجراً وما أَنا من المتكلفين ﴾ »[2] .

هكذا كان السَّلف الصَّالح :

وقد تواتر هذا السَّمْتُ الرَّضِيُّ والنَفَسُ الزَّكيُّ والخُلُقُ السَّنيُّ عن السَّلف الصَّالحين من الصَّحابة والتَّابعين ومن سار على نهجهم إِلى يوم الدين .

* سئل أَبو بكر الصديق - رضي اللَّه عنه - عن آية في كتاب اللَّه

---

(١) أخرجه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (٢ / ٥١) ، والخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧٤) .

(٢) أخرجه الدارمي (١ / ٦٢) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (٢ / ٥١) ، والبيهقي في « المدخل إلى السنن » (٧٩٧) ، والخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧١) من طرق عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق به .

قلت : وهو صحيح .

عز وجل فقال : « أَيَّةُ أَرضٍ تُقِلُّني ، وأَيَّةُ سماءٍ تُظِلُّني - أَو أَين أَذهب أَو كيف أَصنع - إِذا قلت في آيةٍ من كتابِ اللَّه بغير ما أَرادَ اللَّه سبحانه وتعالى »[1] .

* ورويت هذه الكلمة عن علي بن أَبي طالب - رضي اللَّه عنه -[2].

* وعنه أَيضاً ، وقد سئل عن مسأَلة ؛ فقال : « لا علم لي » .

ثم قال : « وابردها على الكبد (ثلاث مرات) » .

قالوا : يا أَمير المؤمنين وما ذاك ؟

قال : « أَن يسأَل الرجل عما لا يعلم فيقول : اللَّه أَعلم »[3].

* وسئل ابن عمر - رضي اللَّه عنهما - أَترثُ العمَّةُ ؟

---

(١) أَخرجه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٢) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٧٩٢) .

وهو ثابت عنه من طرق كثيرة حتى قال ابن عبدالبر : « وذكر مثل هذا عن أَبي بكر الصديق - رضي اللَّه عنه - : ميمون بن مهران ، وعامر الشعبي ، وابن أَبي مليكة » .

(٢) « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٢) .

(٣) أَخرجه الدارمي (١ / ٦٢ و ٦٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧١) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٧٩٤) من طرق متعددة عنه .

فقال : « لا أَدري » .

فقال السَّائل : أَنت لا تدري ولا ندري ؟

فقال : « نعم ؛ اذهب إِلى العلماء بالمدينة فاسأَلهم » .

فلمَّا أَدبر قبَّل ابن عمر يديه وقال : « نِعِمَّا قال أَبو عبدالرحمن ، سئل عما لا يدريه ، فقال : لا أَدري »[1].

وهكذا كان سَمْتُ الصَّحابة - رضي اللَّه عنه - كلٌّ واحد منهم يَوَدُّ أَن صاحبَه كفاه الفتوى .

عن البراء بن عازب - رضي اللَّه عنه - قال :

« لقد رأَيتُ ثلاثمائة من أَهل بدر ما منهم أَحد إِلا وهو يُحِبُّ أَن يكفيه صاحبُه الفتوى »[2].

وأَدرك ذلك التابعون فورثوه ؛ فعن عبدالرحمن بن أَبي ليلى قال : « أَدركت عشرين ومائة من الأَنصار من أَصحاب رسول اللَّه ﷺ يسئل أَحدهم عن المسأَلة فيردها إِلى هذا ، وهذا إِلى هذا حتى ترجع إِلى الأَول »[3].

---

(١) أَخرجه الدارمي (١ / ٦٣) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٢) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧١ - ١٧٢) والبيهقي « المدخل إِلى السنن » (٧٩٦) .

(٢) « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٦٥) .

(٣) أَخرجه الدَّارمي (١ / ٥٣) ، وابن سعد في « الطبقات » =

وسئل القاسم بن محمد يوماً فقال : « لا أَعلم » .

ثم قال : « واللَّه لأَن يعيش الرجلُ جاهلاً بعد أَن يعلمَ حَقَّ اللَّه عليه خير من أَن يقول ما لا يعلم »[1].

وقد تأَثَّر بذلك تابعو التابعين - رحمهم اللَّه - وكان أَسعدهم بذلك إِمام دارِ الهجرة مالك بن أَنس - رحمه اللَّه - فعن ابن وهب قال : سمعت مالكاً يقول - وذكر قول القاسم : « لأَن يعيش الرجل جاهلاً خير له من أَن يقول على اللَّه ما لا يعلم » - فقال مالك : « هذا كلامٌ يُقْبل » .

ثم ذكر مالك أَبا بكر الصديق - رضي اللَّه عنه - وما خصَّه

= (٦ / ١١٠) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥٨) ، والفسوي في « المعرفة والتأريخ » (٢ / ٨١٧ - ٨١٨) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٢ - ١٣) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (٢ / ١٦٣) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن الكبرى » (٨٠٠ و ٨٠١) وأَبو خيثمة في « العلم » (٢١) ، وابن الجوزي في « تلبيس إِبليس » (ص : ١٣٢) من طرق عن عطاء بن السائب عنه به .

قلت : وهذا إِسناد صحيح ، رجاله ثقات ، غير أَن عطاء بن السائب اختلط ، لكن من الرّواة عنه سفيان الثوري وسماعة منه قديم ، ومن سمع منه قبل الاختلاط ، فصحيح .

(١) أَخرجه الدارمي (١ / ٤٨) ، وأَبو خيثمة في « العلم » (٩٠) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (٢ / ٥٣) ، والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (١ / ٥٤٦ و ٥٤٧) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧٣) .

اللَّه به من الفضل ، أتاه إياه ، قال مالك :

« يقول أَبو بكر - رضي اللَّه عنه - في ذلك الزَّمان : لا أَدري ، ولا يقول هذا لا أَدري »[1].

وعن عبدالرحمن بن مهدي قال : جاء رجل إِلى مالك بن أَنس ليسأَله عن شيء أَياماً ما يجيبه ، فقال : يا أَبا عبداللَّه إِنِّي أُريد الخروج ، وقد طال التردد إِليك ، قال : فاطرق كثيراً ، ثم رفع رأسه ، فقال : « ما شاء اللَّه يا هذا إِنّي أَتكلم فيما أَحتسب فيه الخير ، ولست أَحسن مسأَلتك هذه »[2].

قال ابن وهب : وكنت أَسمعه - أَي مالكاً - كثيراً ما يقول : « لا أَدري » ، ولو كتبنا عن مالك لا أَدري لملأْنا الأَلواح[3].

وصار هذا الخُلُق سَمْتاً هادياً للعلماء الربَّانيين كالشَّعبي ، وإِبراهيم النَّخعي ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن عجلان ، وعبداللَّه ابن زيد بن هرمز ، وأَيوب السختياني ، وعمرو بن دينار ، وغيرهم

(١) أَخرجه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » (١ / ٥٤٦) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٨٠٨) .

وذكره ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (٢ / ٥٤) بدون إِسناد .

(٢) أَخرجه أَبو نعيم في « الحلية » (٦ / ٣٢٣) ، وابن عبدالبر في « جامع العلم وفضله » (٢ / ٥٣) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٨١٦) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧٤) من طرق عنه .

(٣) « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٤) .

ممن يضيق بسرد اسمائهم المقام ، حتى قال الراجز[1]:

فإذا جهلت ما سئلت عنه ... ولم يكن عندك علم منه
فلا تَقُل فيه بغير فَهمِ ... ان الخطأ مزر بأَهلِ العِلْمِ
وقل إذا أَعياك ذاك الأَمرُ ... مالي بما تسأل عنه خبر
فذاك شطرُ العِلم عند العلما ... كذا ما زالت تقول الحكما

أمور تعين على ذلك :

وقد أَعانهم على تحقيق ذلك أُمور ، منها :

١ - فرارهم من الفتوى وعدم المبادرة إِليها ، فقد كان أَحدهم يرغب رَغْبَةً جامِحَةً أَن أَخاه كفاه مُؤنة ذلك .

وقد تقدم في ذلك أَثر عن البراء بن عازب - رضي اللّه عنه - ، وآخر عن عبدالرحمن بن أَبي ليلى .

٢ - تركوا الفتوى فيما يسعهم تركه مما لا نصَّ فيه تأثماً ، فمن أَفتى فتوى غير ثبت بدون علم فإِثم من أَفتاه عليه .

عن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أَربعةً وثلاثين شهراً ، فكان كثيراً ما يُسْأَل فيقول : « لا أَدري » ، ثم يلتفت فيقول : « أَتدري ما يريدون هؤلاء ؟ يريدون أَن يجعلوا ظهورنا جسراً إِلى جهنَّم »[2] .

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٤) .

٣ - كانت هِمَّةُ أحدهم أَن ينجو عند اللّه .

عن مالك بن أَنس قال : حدثني ربيعة قال لي ابن خلدة - وكان نعم القاضي - :

« يا ربيعة أَراك تفتي الناسَ ؛ فإِذا جاءك الرجلُ يسأَلك فلا تكن هِمَّتك أَن تخرجَه مما وقع فيه ، ولتكن هِمَّتُك أَن تتخلصَ مما سأَلك عنه »[١].

٤ - من ترك لا أَدري أُصيبت مقاتله .

قال ابن عبَّاس - رضي اللّه عنهما - :

« إِذا ترك العالمُ لا أَدري أُصيبت مقاتله »[٢].

٥ - ويدركون أَن لا أَدري نصف العلم .

قال الشَّعبي : « لا أَدري نصفُ العلم »[٣].

---

(١) أَخرجه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » (١ / ٥٥٦) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٦٩) .

(٢) أَخرجه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٤) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧٢) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٨١٣) من طرق عن مالك عن ابن عجلان عن به .

قلتُ : إِسناده حسن .

(٣) أَخرجه الدارمي (١ / ٦٣) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧٣) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٨١٠) .

من طرق عن أَبي عوانه عن المغيرة عن به .

قلت : وهو صحيح .

ورويت هذه الكلمة عن أَبي الدَّرداء - رضي اللَّه عنه -[1].

ولذلك من طلب عِلْمَ ما لم يَعْلَم بَلَغَه ، ومن ادَّعى عِلْمَ ما لم يعلم الامتحانُ دَمَغَهُ .

ومـــن ادعـــى مـــا ليـــس فيـــه كذَّبتـه شواهدُ الامتحان

وجرى في العُلومِ جــري سُكَيْت خلفته الجيادُ يوم الرِّهـان

ولذلك قال أَبو الذيال :

« تَعَلَّم لا أَدري ولا تَعَلَّم أَدري ، فإِنَّك إِن قلت لا أَدري علموك حتى تدري ، وإِن قلت أَدري سأَلوك حتى لا تدري »[2].

فمن فَعَلَ ذلك فهو مُسْتَرِشدٌ على سبيل نجاةٍ ، كما قال مالكُ ابن أَنس - رحمه اللَّه - :

« ينبغي على العالم أَن يأْلف فيما أُشكلَ عليه قول لا أَدري عسى أَن يهيأَ له خَيْر »[3].

---

(١) « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٤) .

(٢) « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٥) .

(٣) ذكره ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٣ - ٥٤) عن ابن وهب في كتاب « المجالس » .

وأَخرجه البيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٨٠٨) من طريق ابن وهب .

وهكذا علَّموا تلاميذهم :

ولما استقام أَمر السَّلف الصَّالح - رحمهم اللَّه - على ذلك أَصبحت هذه الفضيلةُ أدباً يؤدبُ العالِمُ تلاميذَه بها ويربيهم عليها .

عن مالك بن أَنس أَنه سمع عبداللَّه بن يزيد بن هرمز يقول :

« ينبغي للعالم أَن يُحَدِّثَ جلساؤه من بعده لا أَدري حتى يكون ذلك أَصلاً في أَيديهم يفزعون إِليه إِذا سئل أَحدهم عما لا يدري ، قال : لا أَدري »(٢).

وبالجملَة ؛ فمن ظنَّ أَنَّه يستغني عن التَّعلُّمِ فهو على شفا جُرُفٍ هار .

---

(١) أَخرجه الفسوي في « المعرفة والتاريخ » (١ / ٦٥٥) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (٢ / ٥٢) ، والخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١٧٣) ، والبيهقي في « المدخل إِلى السنن » (٨٠٩) .

الوصية بطلّاب العلم

قول النَّبيِّ ﷺ : « **يا عمر أَتدري من السَّائِل ؟** » ؛ « فيه نَدْبُ تنبيه العالم تلامذته والكبير دونهم على فوائِدِ العلم ، وغرائِبِ الوقائع طلباً لِنَفْعهم ويقظتهم »(١).

غراس في رياض العلماء

وذلك لأن طلابَ العلمِ غراسٌ في رياضِ العلماءِ ، فينبغي على أَهل العلم أَن يستوصوا بهم خيراً ، وينظروا إِليهم بعين المحبَّةِ ، ويحيطوهم بالحرص والرِّعاية حتى يستقيمَ عودُهم ، ولا تميلَ قناتُهم .

وصية رسول اللَّه ﷺ بطلّاب العلم

ولقد أَوصى رسولُ اللَّه ﷺ بطلاب الحديث خيراً ؛ فعن أَبي سعيد الخدري أَنَّه قال :

« مرحباً بوصيَّة رسول اللَّه ﷺ ، كان رسول اللَّه ﷺ يوصينا

---

(١) « دليل الفالحين » لابن علان (١ / ٢٧٨) .

بكم . يعني طلبة العلم »[1].

والصَّحابة كذلك :

وطبَّق الصَّحابةُ - رضي اللَّه عنهم - هذه الوصيَّة .

قال الكُمَيلُ بن زياد : أَخذَ علي بن أَبي طالب بيدي ، فأَخرجني إِلى ناحية الجبَّان ، فلمَّا أَصحرنا ؛ جلس ، ثمَّ تنفَّس ، ثمَّ قال :

« يا كُمَيْلُ بن زياد القُلوبُ أَوعيةٌ ، فَخَيْرُها أَوعاها ؛ احفظ ما أَقولُ لك (وذكر وصيَّةً طويلة) »[2].

وتأَمَّل كيف استوصى أَميرُ المؤمنين علي بن أَبي طالب بخصيصه الكُمَيل بن زياد النَّخعي ؛ حيث هشَّ في وجهه مُمسكاً بيده ، ودَلَّه على مواطنِ العِبَرِ والمَوْعظَةِ ، فأَخذه إِلى الجَبَّان وهو إِمَّا أَن يكون الخلاءُ وهو موطنُ خلوةٍ واعتبارٍ وتفكُّرٍ وتأَمُّلٍ ؛ لأَنَّ القلبَ يفرغُ لما توجَّه إِليه ، فرسول اللَّه ﷺ حُبِّبَ إِليه الخلاء بادئَ بدء ، فعن عائشة أَم المؤمنين - رضي اللَّه عنهما - قالت :

---

(١) أَخرجه الحاكم (١ / ٨٨) ، والعلائي في « بغية الملتمس » (ص : ٢٨) ، والرامهرمزي في « المحدث الفاضل » (٢١) .

وصحَّحه شيخنا - حفظه اللَّه - في « الصحيحة » (٢٨٠) .

(٢) وانظر لزاماً « الإِسعاد بذكر فوائد وصيَّة أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب للكميل بن زياد » نشر دار الصميعي - الرياض .

« أَولُ ما بُدِئَ به رسولُ اللَّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النّوم ، فكانَ لا يرى رؤيا إلَّا جاءت مثل فَلَقِ الصُّبح ، **ثمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاءُ ، وكان يخلو بغار حراءٍ فيتحنَّث فيه – وهو التعبد – الليالي ذواتِ العدد** »[1].

أَو يكون المرادُ بالجَبَّان المقابر ، فإنَّها تُذَكِّرُ بالآخرة .

ثم نبَّهه على أَهميةِ ما يمليه عليه فأَمَرَه بالوعي والحفْظِ .

وهذا منهجٌ نبويٌّ في التَّعليم كما صنَع رسولُ اللَّه ﷺ مع عبداللَّه بن عبَّاس – رضي اللَّه عنهما – فقال له :

« يا غلام إنِّي أُعلمك كلمات ... » الحديث[2].

من درر قالات أَهل العلم :

قال الخطيب البغدادي في « الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » (١ / ٣٤٣ – ٣٥٥) .

« بابُ توقيرِ المحدثِ طلبة العلم وأَخذه نفسه بحسنِ الاحتمال لهم والحلم » .

وذكر تحتَ هذا الباب فُصولاً ، نذكرُ رؤوسها :

* إِكرامه المشايخ وأَهل المعرفة .

---

(١) البخاري (١ / ٢٣ – فتح) .

(٢) صحيح ؛ كما بيَّنته في : « صحيح كتاب الأَذكار وضعيفه » (١٢١٨ / ١٠٠٠) نشر دار الغرباء الأَثريَّة – المدينة المنوَّرة .

* تعظيم الأَشراف وذوي الأَنساب .
* تعظيمه من كانَ رأساً في طائفَتِه وكبيراً عند أَهل نِحْلَتِه .
* إِكرامه الغرباء من الطَّلبَة وتقريبهم .
* استقباله لهم بالترحيب .
* تواضعه لهم .
* تحسين خلقه معهم .
* الرفق بمن جفا طبعه منهم .

ومن درر قالاته في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ١١٠) تحت باب « ذكر أَخلاق الفقيه وآدابه وما يلزمه استعماله مع تلاميذه وأَصحابه » :

« يلزم الفقيهُ أَن يتخيَّر من الأَخلاقِ أَجمَلَها ، ومن الآداب أَفضَلَها ، فيستعمل ذلك مع البعيدِ والقريبِ والأَجنبي والنَسيبِ ، ويتجنَّب طرائِقَ الجُهَّال وخلائِقَ العوام والأَراذِلِ » .

وقال (٢ / ١١٣) تحت عنوان « استعمال التواضع ولين الجانب ولطف الكلام » :

« وينبغي له أَن يعوِّد لسانَه لينَ الخطابِ والملاطفة في السُّؤال والجواب ، ويعم بذلك جميع الأَمَّة من المسلمينَ وأَهل الذمَّة » .

وقال (٢ / ١١٦ - ١٢٠) تحت عنوان « استقباله المتفقهة

بالترحيب بهم وإظهار البشر لهم » :

« وخدمة الفقيه أَصحابه بنفسه مما يصفي منهم المودَّة ، ويلقي في قلوبهم المحبَّةِ » .

وقال : « وينبغي أَن يتفقدَهم ويسأَل عمن غاب منهم » .

وقال (٢ / ١٣٩) تحت عنوان « تنبيه الفقيه على مراتب أَصحابه » :

« يستحب للفقيه أَن يُنَبه على مراتِبِ أَصحابِه في العِلْم ، ويذْكُرَ فضْلَهم ، ويُبيِّنَ مقاديرهم ، ليفزعَ الناسُ إِليهم في النَّوازل بعده إِليهم ، ويأخذوا عنهم » .

وقال (٢ / ١٤٠) :

« وإِذا بانَ للفقيه نفاذُ أَحدِ أَصحابه في العلم وحُسْنُ بصيرته بالفقه جاز له تخصيصه دونهم وأَثرته عليهم » .

نكتٌ لطيفةٌ وصوى منيفةٌ :

وتحت هذه النكتةِ لطائفُ منها :

١ – بقاء سلسلة الإِسناد واتصاله .

قال العلائي في « بغية الملتمس » (ص : ٢٣) :

« أمَّا بعد : فإنَّ اللَّه تبارك وتعالى ، وله الحمْدُ والمنَّةُ ، مَنَّ على هذه الأُمَّة المكرَّمة بسلسلة الإسناد واتِّصالهِ ، ونقل خلفُها عن سلفها سنَّة نبيها ﷺ وبيان أَحواله ، وذلك من معجزاته التي أَشارَ إِليها ، ووعد أمَّته بالمحافظة عليها ، وأَوصى بالطالبين لذلك وإلطافهم وإِسعادهم بمطلوبهم وإِسعافهم ، ثمَّ ساق (بإِسناده) قول رسول اللَّه ﷺ :

« تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم »[1].

ثمَّ ساق (بإِسناده) روايات وطرق وصية رسول اللَّه بطلبة العلم »[2].

٢ - تشجيعُ الرحلةِ في طلبِ العلمِ .

حيثُ وردَ في بعضِ رواياتِ حديث أَبي سعيد الخدري السَّابق :

« سيأتيكم أَقوام يطلبون العلمَ ، فإِذا رأَيتموهم فقولوا : مرحباً مرحباً بوصيَّة رسول اللَّه ﷺ وأَقنوهم » .

---

(١) أَخرجه أَبو داود (٣٦٩٥) ، وأَحمد (١ / ٣٢١) ، وابن حبَّان (٧٧ - موارد) ، والحاكم (١ / ٩٥) من طريق عبداللَّه بن عبداللَّه عن سعيد ابن جُبير عن ابن عبَّاس مرفوعاً .

وصححه الحاكم على شرط الشيخان .

قلت : عبداللّه بن عبداللّه لم يخرج له الشيخان ، وهو ثقة .

(٢) مضى تخريجه (ص : ٦٩) .

قلت للحكم : ما أقنوهم ؟

قال : علِّموهم[1].

وقد صنَّف الخطيب البغدادي كتابه : « الرحلة في طلب الحديث » ذكره فيه نفائس هذا الباب .

من اشتهر عنه من أَهل العلم التَّواضع وحرصه على إِفادَةِ تلاميذه سعى إِليه طلبةُ العلم من أَقطارِ الأَرضِ ينهلون من معينه .

٣ - إِقبالُ المتعلمِ على طلبِ العلمِ .

ومن كان من العلماءِ موطأَ الأَكنافِ ، سمحَ الأَوصاف وَرَدَه طلبَةُ العلمِ وأَفادوا منه يدلك على هذا قول اللَّه تعالى لنبيِّه :

﴿ فبما رحمةٍ منَ اللهِ لنْتَ لهم ولو كُنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفضوا من حولِكَ فاعفُ عنهُم واستغفِر لهم وشاورهُم في الأَمرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

فإِذا كان ربُّ البريةِ يوصي رسوله ﷺ بأَصحابِه خيراً ؛ فطلاب العلم في حاجةٍ إِلى كنفِ عالمٍ رحيمٍ ، وإِلى رعايةٍ فائقةٍ ، وإِلى بشاشةٍ سمحةٍ ، وإِلى وُدٌّ يَسَعَهم ، وحلم لا يضيقُ بجهلِهم وضعفِهم ونقصِهم .

---

(١) انظر « صحيح سنن ابن ماجه » (٢٠١) .

إِنَّهم في حاجةٍ إِلى قلبٍ كبيرٍ يُعطيهم ولا يحتاج منهم إِلى عطاءٍ ، ويَحمل همومَهم ولا يضنيهم بهمِّه ، ويجدون عنده الرعاية والعطفَ .

وهكذا فلا يكادُ المرء يسمع شيئاً من هذه الوصايا بطلَّاب العلم ، ويرى الرعاية لهم من أَهل العلم إِلَّا اندفع تلقائيّاً ؛ ليكون أَحد أَطراف الحياة العلميَّة الشامخة ؛ التي ستتمخضُ - إِن شاء اللَّه - عن الانطلاقة الكبرى لأَهل الحديث أَتباع السَّلف الصَّالح ؛ ليعود مجدُ هذه الأُمَّةِ الإِسلاميَّةِ المفقود ، ويتحققَ أَملُها المنشودُ ، ونسأَل اللَّه أَنْ يرينا ذلك اليومَ المشهود .

اختيارُ الشُّيوخِ والفُقَهاءِ الذين يتعلَّم منهم

في قول رسول الله ﷺ لعمَر بن الخطاب : « **هذا جبريلُ أتاكم يعلمكم دينَكم** » تَنْبيهٌ للطالب المُتَعلِّمِ أن يُوَلِّي وجهه شطر أهلِ العلم الرَّبانيين الذين استفاضَت شُهرَتُهم بالتَّقوى ، وصَحت عَدالَتُهم ، وَعُلِمَت استقامَتُهم على هذا الدِّين .

إن هذا العلم دينٌ :

وقد أَشار السَّلفُ الأَوَّلُ إلى هذه الدَّلالةِ التي تُنْقِذُ من الجَهالَةِ ، وتحمي من طَبَّقها من الضَّلالَةِ .

قال التَّابعي الجليلُ محمد بن سيرين - رحمه الله - :

« إنّ هذا العِلمَ دينٌ ، فانظروا عَمّن تأخذون دينَكم »[1] .

وذلك لأن هذا العلمَ يحملُه العدولُ ؛ فينبغي أن يؤخذَ عنهم ، كما قال أبو موسى عيسى بن صبيح :

(١) أخرجه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١/ ١٤) بسند صحيح .

« قد صَحَّ أن النبي ﷺ قال : « يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُه : ينفون عنه تحريفَ الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وإنتحال المبطلين »[1] ؛ فسبيلُ العِلمِ أن يُحمَلَ عمن هذا سبيلُه ووصفُه »[2] .

ولذلك ينبغي التَّمييز بين علماء أَهلِ السُّنَّةِ وأهلِ البِدَعِ كما قال محمد بن سيرين - رحمه اللَّه - :

« لم يكونوا يسألون عن الإسناد ؛ فلما وقعت الفتنةُ ، قالوا : سمّوا لنا رجالَكم ، فينظر إلى أهلِ السُّنَّة فيؤخذ حديثُهم ، وينظر إلى أهلِ البِدع فلا يؤخذ حديثُهم »[3] .

وكذلك ينبغي تمييز أهلِ الفهم والأخذ عنهم ، فإن لكل علمٍ رجالاً يُعْرَفون به ويعرف به .

قال مالك بن أنس - رحمه اللَّه - :

« إن هذا العلمَ دينٌ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم ، لقد أَدركت سبعين ممن يقول : قال فلان قال رسول الله ﷺ عند الأَساطين - وأشار إلى مسجد النبي ﷺ - فما أخذت عنهم شيئاً ، وإن أحدَهم لو أوتمن على مالٍ لكان أميناً ؛ **لأنهم لم يكونوا من أهلِ**

---

(١) حسن بشواهده ؛ كما بينته في جزء مفرد .

(٢) « الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع » (١٢٩/١) .

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة « صحيحه » (١٥/١) بسند صحيح .

هذا الشأن ، ويقدم علينا محمد بن مسلم بن عبيدالله بن عبد الله ابن شهاب فيزدحم على بابه » [1] .

من درر قالات أهل العلم :

وقد نَبّه أهلُ العلم في مصنفاتِهم على هذه النُّكْتَةِ حمايةً لِعُدَّةِ المستقبلِ كي لا تصرع في أحضانِ الأدعياءِ الذين نَبَتَت أشجارُهم في أرضٍ جرداءَ ، فراموا البروزَ قبل النُّضوجِ ، وَتزَبَّبوا قبل أن يُحصرِموا ، وَ تَهافتوا على مقام العلم في الفُتيا والتأليف ، واقتحموا قمم عدول الأُمَّة السَّالفين ، فَحلّوا في رحاب العِلمِ مِعولاً يهدمُ حماه ، ويخرقُ سياجَه .

ولقد زاد في تَنَمُّرهم إقبالُ العامَّةِ وأشباههم على مجالستهم تَعَجُباً ، وإِلقاء السَّمع إلى قصصهم طَرَباً .

قال الخطيب البغدادي في « الفقيه والمتفقه » (٢/٩٦) :

« ينبغي للمتعلِّم أن يقصدَ من الفقهاءِ من اشتهرَ بالدِّيانَةِ ، وَعُرف بالسَّتْرِ والصِّيانَةِ »

ثم قال : « فيكون قد رسم نفسه بآداب العلم من استعمال الصبر ، والحلمِ ، والتواضعِ للطالبين ، والرِّفقِ بالمتعلِّمين ، ولين

(١) « الفقيه والمتفقه » (٢/٩٨) .

الجانبِ ، ومداراةِ الصاحبِ ، وقولِ الحقِّ ، والنصيحةِ للخلقِ ، وغير ذلك من الأوصافِ الحميدةِ ، والنُّعوتِ الجميلةِ » .

وعقد في كتابه الفذ : « الجامع لأخلاقِ الراوي وآداب السامع » (١/١٢٦ -١٣٧) فصولاً نذكُرُ رؤوسها :

* درجات الرواة لا تتساوَى في العلم ، فيُقَدَّم السماع ممن علا إسنادُه على ما ذكرنا ، فإن تكافأت أسانيدُ جماعةٍ من الشُّيوخِ في العُلُوِّ ، وأراد الطالب أن يقتصرَ على السَّماعِ من بعضهم ، فينبغي أن يتخيّر المشهور منهم بطلب الحديث ، المشار إليه بالإتقان له والمعرفة به .

* وإذا تساوَوْا في الإسنادِ والمعرفةِ ، فمن كان من الأَشراف وذوي الأنساب ، فهو أولى بأن يُسْمَع منه .

* هذا كلُّه بعد استقامة الطريقة ، وثبوت العدالةِ ، والسَّلامةِ من البِدْعَةِ ، فأما من لم يكن على هذه الصِّفة ، فيجب العدولُ عنه ، واجتنابُ السماع منه .

* اتفق أهلُ العلم على أن السَّماعَ ممن ثبت فسقُه لا يجوزُ ، ويثبت الفِسْقُ بأمورٍ كثيرةٍ لا تختص بالحديث ، فأما ما يختص بالحديث منها ، فمثل أن يضعَ متونَ الأحاديثِ على رسول اللّه

ﷺ ، أو أسانيد المتون .

ويقال : إن الأصلَ في التَّفتيشِ عن حالِ الرواةِ كان لهذا السَّببِ .

* ومنها أن يَدَّعي السماعَ ممن لم يلقه ، ولهذه العلَّةِ قَيَّدَ الناسُ مواليدَ الرواةِ وتاريخ موتهم ، فوُجِدَتْ روايات لقوم عن شيوخ قصَّرَتْ أسنانُهم عن إدراكِهم .

* وضبط أصحابُ الحديث صفاتِ العلماءِ ، وهيئاتِهم ، وأحوالَهم أيضاً ، لهذه العلَّةِ وقد افتضح غير واحدٍ من الرواة في مثل ذلك .

* وإذا سَلِمَ الراوي من وضع الحديث وإدعاء سماع من لم يلقه ، وجانب الأفعالَ التي تَسْقُطُ بها العدالَةُ ، غير أنه لم يكن له كتابٌ بما سمعه ، فَحَدَّث من حفظه لم يصح الاحتجاج بحديثه حتى يشهد له أهلُ العلمِ بالأثرِ العارفون به أنه ممن قد طلب العلم ، وعاناه ، وضبطه وحفظه ، ويعتبر اتقانُه وضبطُه بقلب الأحاديث عليه .

* وإن كان الراوي من أَهلِ الأهواءِ والمذاهِبِ التي تخالف الحقَّ لم يُسْمَعْ منه ، وإن عُرِفَ بالطَّلبِ والحفْظِ .

احذروا ضياع العلم :

فينبغي على طُلَّابِ العلم الشَّرعي التَّنَبُّهُ على حقيقة الأمر ، فيعرفون عَمَّن يأخذون دينَهم ، فلا يلتمسونه عند أهلِ البِدَعِ ، فيضلونَهم وهم لا يشعرون ، كما أَخبر ﷺ :

« إن من أشراط السَّاعة أن يلتمسَ العِلْمُ عند الأصاغر » [1] .

فيا طُلَّاب العلم أَفيقوا ؛ فإن هذا العلم دينٌ ، فاعرفوا عمن تأخذون دينكم .

أَلا هل بلغت ؟ اللَّهم فاشهد .

---

(١) أخرجه عبد الله بن المبارك في « الزهد » (٦١) ، و اللالكائي في « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (١٠٢) ، والخطيب البغدادي في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (١٣٧/١) .

من طريق ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن أبي أمية الجمحي مرفوعاً

قلت : وهذا إسناد صحيح ، لأن حديث ابن لهيعة صحيح إذا كان من رواية العبادلة عنه ، وابن المبارك منهم .

ومع ذلك لم ينفرد به ابن لهيعة بل تابعه سعيد بن أبي أيوب عند الخطيب البغدادي (١٣٧/١) ، وهو ثقه ثبت .

وله شاهد من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - في حكم المرفوع ؛ لأنه لا يقال بالرأي والاجتهاد ، ولفظه :

« لا يزال الناسُ بخير ما أتاهم العلمُ من أصحابِ محمد ﷺ وأكابِرِهم ، فإذا أتاهم العلمُ من قِبل أصاغِرِهم فذلك حين هلكوا » .

أخرجه ابن المبارك (٨٥١) ، واللالكائي (١٠١) وغيرهم .

شذراتُ الذَّهَبِ في آدابِ الطَّلَبِ

« هذا نظمٌ من الرَّجَز من أَحسنِ ما رأَيتُ في آدابِ التَّعلمِ والتَّفَقهِ ، وقد رأَيتُ إيرادَ ما ذُكِرَ مِن ذلك لِحُسنه ، ولما رجوتُ من النَفْعِ به لمن طالَع كتابي هذا نَفعَني اللَّهُ وإيَّاه به .

واعلم بأَنَّ العِلمَ بالتَّعَلُّم والحِفظِ والاتقانِ والتَّفَهم

والعلمُ قد يُرزقهُ الصَّغيرُ في سِنِّه ويُحرم الكَبيرُ

فإنَّما المرءُ بأَصغريه ليس برجلَيهِ ولا يَدَيه

لسانه وَقلبه المركَّب في صدرِه وذلك خلق عَجَب

والعلمُ بالفهمِ وبالمذاكرةِ والدَّرْسِ والفِكْرةِ والمناظَرةِ

فربَّ إنسان ينالُ الحفظا ويورِدُ النَّصَّ ويحكي اللَّفظا

وماله في غيرِه نصيبُ مما حواه العالمُ الأَديبُ

ورب ذي حِرصٍ شديدِ الحُبِّ للعِلْمِ والذِّكرِ بليد القَلبِ

معجز في الحفظِ والروايةِ ليست له عما روى حِكاية

وآخر يعطى بلا اجتهاد حفظاً لما قد جاءَ في الإسنادِ

يهزه بالقلبِ لا بناظِره ليس بمضطرٍ إلى قماطِره

فالتمس العِلمَ وأَجمل في الطَلَبِ والعـلمُ لا يَحْسُنُ إِلّا بالأَدبِ

والأَدبُ النَّافِعُ حُسْـنُ السَّمـتِ وفي كثير القولِ بعضُ المَقْتِ

فكن لِحُسنِ الصَّمْتِ ما حييتـا مقـارفاً تحمـــدُ ما بَقيـتا

وإِن بدت بينَ أُناسٍ مســأَلَةٌ معروفةٌ في العلمِ أَو مُفتَعَلَةٌ

فلا تَكُن إِلى الجوابِ سـابقاً حتى ترى غيرَك فيها ناطِقاً

فكم رأَيت من عَجولٍ ســابِقٍ من غير فهـمٍ بالخطـإِ ناطِق

أَزرى بـه ذلـك في المجـالِسِ عند ذوي الأَلبابِ والتَّنافُس

والصَّمْتُ فاعلم بك حقّـاً أَزيَنُ إِن لم يكن عندك علمٌ متقَنُ

وقـل إِذا أَعيـاك ذاك الأَمْرُ مالي بمـا تسأَلُ عنه خُبْرُ

فـذاك شَطْرُ العِلمِ عن العُلَما كذاك ما زالت تقولُ الـحُكَما

إِيَّاكَ والعجب بفضـلِ رأيكـا واحذَر جوابَ القولِ من خطائِكا

كم من جوابٍ أَعقبَ النَّـدامةَ فاغتنم الصَّمْتَ مع السَّلامة

العـلْمُ بحرُ منْتَهاه يَبْعُـدُ ليس لَه حـدٌّ إِليه يُقصـدُ

وليس كلُّ العلمِ قد حـويتَه أَجَل ولا العُشْر ولو أَحصَيتَهُ

وما بقي عليك منـه أَكـثَر ممـا علمـت والجَوادُ يَعْثُر

فكـن لما سمعتـه مُسْتَفهِـماً إِنْ أَنتَ لا تفهم منه الكَلما

القـولُ قولان فقـولٌ تَعقله وآخـر تسـمَعُهُ فَتَجْـهَلُه

وكـلُّ قولٍ فلـه جـوابُ يجمَعُهُ الباطِلُ والصَّوابُ

ولـــلكـــلامِ أَوَّلٌ وآخِـــــرُ فافهمهما والذِّهنُ منك حاضِرُ

لا تدفـــــع القـولَ ولا ترده حتى يؤديك إِلى ما بَعْده

فربمـــا أَعيى ذوي الفضـائلِ جوابُ ما يلقي من المسائِلِ

فيمســكوا بالصَّمتِ عن جوابه عند اعتراضِ الشَّكِّ في صوابِه

ولو يكون القولُ في القيــاسِ من فضَّةٍ بيضاءٍ عند النَّاس

إِذا لكانِ الصَّمْتُ من خير الذَّهــبِ فافهم هَداك اللَّهُ آدابَ الطَّلبِ »[1]

---

(١) « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ١٤٦ - ١٤٨) بتصرف .

الخاتمةُ
رزقنا الله الحُسنى وزيادَة

هذا ما تَيَسَّر لي جَمْعُه في هذه العُجالَةِ التي أسأَلُ اللَّه أن يَسوقَها لِتُجارِها ، ومَن يعرفُ مِقدارَها ، فَيسعى في قَبولِها ، ويَدعو لانتِشارِها .

وإني لأَعلم أن المَقامَ بحاجةٍ إلى زيادةِ بَسْطٍ ، وَتَحليلٍ وَرَبْطٍ ، واتقانٍ وَضَبْطٍ ؛ لكنها مُجَرَّدُ إشارةِ أَصبعٍ للذين أُصيبوا بعمى الأَلوانِ ، فَأصبحوا أَبواقَ دعايةٍ لفرق الضَّلاَلةِ والغِوايَةِ وَيَظنون أَنهم على شيءٍ وليسوا كذلك ، وفاقِدُ الشَّيء لا يعطيه ، وإن تَشَبَّعَ بما لم يعطَ ، وادعى ماليس فيه .

ولا يسعني في هذه الخاتمة إلا أن أعيد ما قاله ابنُ عبد البر النمري في فاتحة كتابه القيِّم : « جامع بيان العلم وفضله » (ص : ٦) :

« وأحب أن ينظرَ المسترشِدُ إليه ، ولو أغفل العلماءُ جَمْعَ الأخبارِ وتمييزَ الآثارِ ، وتركوا حُجَّةَ كلِّ نوعٍ إلى بابه ، وكلِّ شكلٍ من العلم إلى شَكْلِه ؛ لبطلت الحكمةُ ، وضاع العلمُ ودُرِسَ ، وإن

كان لعمري قد دُرِسَ منه الكثيرُ لعدم العنايةِ ، وقلَّةِ الرِّعايةِ ، والاشتغال بالدنيا ، والكَلَبِ عليها ، ولكن اللِه يبقي لهذا الدِّينِ قوماً - وإن قلّوا - يحفظون على الأمَّةِ أصولَه ، ويميزون فروعَه ، فضلاً من الله ونِعْمةً ، ولا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما بقي الأوَّلُ حتى يتعلَّم منه الآخر ، فإن ذهابَ العِلم بذهاب العُلماءِ » أ.هـ .

وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك .

فهرس الأحاديث

فهرس الآثار

ثبت المراجع والمصادر

« الإِسعاد بذكر فوائد وصيَّة أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب للكميل بن زياد » : لطائفة من علماء السَّلف ، تحقيق المؤلف ، دار الصميعي - الرياض .

« إِيقاظ الهمم المنتقى من جامع العلوم والحكم » : ابن رجب الحنبلي - تحقيق المؤلف ، دار ابن الجوزي - الدمام .

« بغية الملتمس » : العلائي - عالم الكتب .

« تلبيس إِبليس » : ابن الجوزي - دار المعرفة .

« تنقيح الإِفادة المنتقى من مفتاح دار السعادة » : ابن قيم الجوزيَّة ، تحقيق المؤلف ، دار الصَّحابة - جدَّة .

« التواضع في ضوء الكتاب والسنَّة الصحيحة » : المؤلف ، دار ابن القيم - الدمام .

« جامع بيان العلم وفضله » : ابن عبدالبر القرطبي - دار الكتب العلميَّة .

« الجامع لأَخلاق الراوي وآداب السامع » : الخطيب

البغدادي - مكتبة المعارف - الرياض .
« حلية الأَولياء » : أَبو نعيم الأَصبهاني - دار الفكر .
« دليل الفالحين شرح رياض الصالحين » : ابن علّان - دار الكتاب العربي .
« الرياء ذمة وأَثره السيئ في الأُمَّة » : المؤلف ، دار ابن الجوزي .
« الزُّهد » : ابن المبارك - دار الكتب العلميَّة .
« سلسلة الأَحاديث الصحيحة » : للأَلباني - المكتب الإِسلامي ، ومكتبة المعارف ، المكتبة الإِسلامية .
« السنن » : الترمذي - دار إِحياء التراث العربي .
« السنن » : الدارمي - دار الفكر .
« السنن » : النَّسائي - دار الكتب العربي .
« شرح أُصول اعتقاد أَهل السنَّة والجماعة » : اللالكائي - دار طيبة.
« شرح حديث ما ذئبان جائعان ... » : ابن رجب الحنبلي - طبع الكويت .
« شرف أَصحاب الحديث » : الخطيب البغدادي - دار إِحياء السنَّة النَّبويَّة - تركيا .
« شعب الإِيمان » : البيهقي - مخطوط .
« الصحيح » : البخاري - دار الفكر .
« صحيح ابن ماجه » : الأَلباني ، مكتب التربية العربي .
« الصحيح » : مسلم - دار إِحياء التراث العربي .

« صحيح التَّرغيب والتَّرهيب » : الأَلباني - مكتبة المعارف .
« صحيح كتاب الأَذكار وضعيفه » : المؤلف - مكتبة الغرباء .
« الطبقات الكبرى » : ابن سعد - دار صادر .
« العبودية » : ابن تيميَّة - دار الأَصالة .
« العزلة » : الخطابي - دار الكتب العلميَّة .
« العلل المتناهية » : ابن الجوزي - دار الكتب العلميَّة .
« العلم » : أَبو خيثمة - دار الأَرقم - الكويت .
« فتح الباري شرح صحيح البخاري » : ابن حجر العسقلاني - دار الفكر .
« الفقيه والمتفقه » : الخطيب البغدادي - دار الكتب العلميَّة .
« الفوائد البهيَّة في تراجم الحنفيَّة » : محمد عبدالحي اللكنوي - دار المعرفة .
« الكامل في ضعفاء الرجال » : ابن عدي - دار الفكر .
« كشف الأَستار عن زوائد البزَّار » : الهيثمي - مؤسسة الرسالة .
« مجمع البحرين في زوائد المعجمين » : الهيثمي ، مكتبة الرشد - الرياض .
« مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » : الهيثمي - دار الكتاب العربي .

« المحدث الفاضل » : الرامهرمزي – طبع مصر .
« مدارج السالكين » : ابن قيم الجوزيَّة – دار الكتاب العربي .
« المدخل إلى السنن الكبرى » : البيهقي – دار الخلفاء للكتاب الإسلامي .
« المستدرك » : الحاكم – دار الفكر .
« المسند » : أَحمد بن حنبل – دار الفكر .
« مسند الشهاب » : القضاعي – مؤسسة الرسالة .
« مشكاة المصابيح » : الخطيب التبريزي – المكتب الإسلامي .
« المعجم الكبير » : الطَّبراني – طبع العراق .
« المعرفة والتأريخ » : الفسوي – مؤسسة الرسالة .
« مفتاح دار السَّعادة » : ابن قيم الجوزيَّة – دار الكتب العلميَّة .
« المقاصد الحسنة » : السخاوي – دار الكتاب العربي .
« من وصايا السَّلف » : المؤلف – دار ابن الجوزي .
« مناقب الإمام أَحمد بن حنبل » : ابن الجوزي – دار الآفاق الجديدة .
« موارد الظمآن » : الهيثمي – دار الكتب العلميَّة .
« نيل الأوطار » : الشوكاني – دار الفكر .

فهرس الموضوعات

كلمة مضيئة

لما كان المجاهد لا ينكأ عدوًا إلَّا بسلاحٍ وعُدَّة فمن أراد الخروج أعدَّ له عُدَّة ، كما قال تعالى : ﴿ **ولو أرادوا الخُروج لأعَدّوا له عُدَّة** ﴾ . ولذلك أمر المجاهدين بالإعداد والاستعداد فقال : ﴿ **وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوّة** ﴾ . فكذلك العالمُ المعلِّمُ والمتعلِّمُ لا يصنعُ أُمَّةً ، ولا يكشف غُمَّة ، ولا يزيل ظُلمةً إلَّا بأخلاقٍ وآداب . فينبغي أن يتميّز العالمُ المعلِّمُ ويتحلّى الطالبُ المتعلِّم في عامَّة أُموره عن طرائق العوامِّ باستعماله آثار الرسول عليه الصّلاة والسّلام ما أمكنه ، وتوظيف السّنن على نفسه . فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة** ﴾ .

ولله درُّ سفيان الثوري القائل : « إذا استطعت ألَّا تحكّ رأسك إلَّا بأثر فافعل » .

المؤلف

ردمك : ٤ - ٥ - ٩٠٢٥ - ٩٩٦٠